



الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية

أسباب الفتن ونماذجها في ضوء القرآن الكريم

[بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير]

الإعداد

منور حسين

الرقم الجامعي : U181014

الإشراف

محمد هارون الرشيد

الأستاذ المساعد

قسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية

فصل الخريف، عام 2018م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الموافقة

أشرفت على هذا البحث وقمت بمراجعته فوجدته جديرا بالقبول كبحث التخرج في مرحلة الماجستير من حيث مستواه العلمي، ومن حيث المناقشة العلمية.

توقيع المشرف:

اسم المشرف: محمد هارون الرشيد

التاريخ:

قمت بقراءة هذا البحث وأرى أنه جدير بالقبول كبحث التخرج في مرحلة الماجستير من حيث مستواه العلمي، ومن حيث المناقشة العلمية.

توقيع القارئ الثاني:

اسم القارئ الثاني: الدكتور محمد لطف الرحمن الأزهري

التاريخ:

قمت بقراءة البحث ومناقشته وأرى أنه جدير بالقبول كبحث التخرج في مرحلة الماجستير من مستواه العلمي ومن حيث المناقشة العلمية.

توقيع المناقش:

اسم المناقش:

التاريخ:

قدم هذا البحث إلى قسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية العالمية شيتاعونغ لحصول شهادة الماجستير وقد تم قبوله بعد استيفاء جميع متطلباته.

توقيع رئيس القسم:

اسم رئيس القسم: الدكتور محمد معين الدين

التاريخ:

قدم هذا البحث إلى قسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية العالمية شيتاعونغ لحصول شهادة الماجستير وقد تم قبوله بعد استيفاء جميع متطلباته.

توقيع عميد الكلية:

اسم عميد الكلية: الأستاذ الدكتور محمد شفيع الدين المدني

التاريخ:

كلمة الشكر والتقدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:
فقد قال الله عز وجل في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "من لم يشكر الناس فلم يشكر الله".¹

انطلاقاً من هذه الآية الكريمة والحديث النبوي الشريف أود أن أشكر الله تعالى لأنه منحني فرصة طيبة لإعداد هذا البحث بعنوان: "أنواع الفتن وأسبابها في ضوء القرآن الكريم".

ثم أقدم جزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى سعادة الأستاذ **محمد هارون الرشيد** الذي قام بإشراف على هذا البحث ، وشرفني بالكثير من الإرشادات والتوجيهات الغالية، وبذل لي من أوقاته الثمينة حتى طلع هذا البحث ناضجاً ، فجزاه الله أحسن الجزاء .

ثم أقدم جزيل الشكر من أعماق قلبي إلى القارئ الثاني الأستاذ **الدكتور محمد لطف الرحمن الأزهري** الذي رضي بقراءة بحثي، وبذل لي من أوقاته القيمة حتى طلع هذا البحث ناضجاً يانعا فجزاه الله في الدنيا والآخرة

ثم أقدم الشكر والتقدير إلى الأساتذة الكرام في قسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية وعلى رأسهم فضيلة **الدكتور محمد معين الدين** - حفظه الله - رئيس قسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية .

ثم أود أن أقدم الشكر المتواضع للجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ وخاصة لقسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، التي أتاحت لي هذه الفرصة الطيبة لأتلقى علوم الدين الإسلامية القيمة وإتمام مرحلة البكالوريوس (الشرف) ومرحلة الماجستير في ساحتها.

ولا أنسى أن أشكر جميع زميلائي وأصدقائي، اللذين ساعدني بالمشاورة والرأى وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزيهم خير من يجزي به عباده الصالحين. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام.

¹ - السجستاني ، أبو داؤد سليمان، السنن، ج 2 ، دار السحون ، استنبول ، ط ، 1992م، ص 158.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. أما بعد :

فإن كثيرا من الناس في هذا الزمان فتنوا لمغريات الدنيا وزينتها، واتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، فمظاهر الحياة الدنيا حلوة تحبها النفوس وتميل إليها، وقد جعلها الله سبحانه وتعالى فتنه للإنسان على مر الزمن. فإن الفتنة سنة من السنن الكونية في هذه الحياة، فقد فتن الأنبياء والرسل والصحابة والصالحون وغيرهم من البشر ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين.

والفتن تتفاوت زمانا ومكانا فمنها ما يلحق الضرر على الفرد ومنها ما يلحق الضرر على الإنسانية كافة، فالعالم اليوم يعيش جملة من الفتن في شتى مجالات الحياة كالافتتان بالدنيا وزهرتها، وفتنة الأموال والأولاد وغيرها، كما أن هناك فتن لا تظهر بعد كفتنة يأجوج ومأجوج، وفتنة المسيح الدجال.

أهمية الموضوع :

والفتنة موضوع ذو أهمية بالغة، حيث يعد من أهم الموضوعات التي تعرض لها القرآن الكريم والسنة النبوية ويتجلى ذلك في الآيات الكثيرة التي عنيت بالحديث عن موضوع الفتن. كما أن موضوع الفتن من القضايا المهمة في حياة المسلمين، حرص الإسلام من وراء تنبيه المسلم إلى الفتن، وعلاماتها وأسبابها وأنواعها ونماذجها ووسائل الوقاية منها، ليكون بينة مما يظهر أمامه على ساحة الحياة، وكذا التدبر في الآيات القرآنية التي وردت فيها الفتنة لفظا ومعنى، لمعرفة كيفية معالجة القرآن الكريم لها، وعلاج المجتمعات الإسلامية لها والحذر من عواقبها. هذا ما سأطرق إليه في هذا البحث ومن الله العون والسداد.

أسباب اختيار الموضوع :

وترجع أسباب اختياري لموضوع أسباب الفتن ونماذجها في ضوء القرآن الكريم" إلى:

* اخترته طلبا لمرضات الله سبحانه وتعالى وإخلاصا لوجهة الكريم.

1- ما يوليه القرآن الكريم من اهتمام خاص لموضوع الفتنة، حيث يظهر ذلك في كثرة الآيات التي تناولت لفظا ومعنى بمعان وأساليب مختلفة وكذا اهتمام السنة النبوية الشريفة الذي يلفت النظر.

2 - عناية السلف بموضوع الفتن تصنيفا ودراسة واستخراجا للعبر مما يشجع على الكتابة فيه.

3- الحاجة الملحة في هذا العصر إلى الحلول القرآنية لعلاج قضايا الإنسانية.

4- غفلة ونسيان كثير من الناس لهذا الموضوع المهم.

5 - تقديم التصور الصحيح لمفهوم الفتنة، وأنه سنة عريقة من سنن الله عزوجل في حياة العباد.

6 - كثرة الفتن في هذا العصر، وما يعانیه المسلمون من جرائها، وكذا التنبيه إلى العدة التي تمكنهم اجتياز الفتن بسلام .

كل هذه الأسباب، واقتناعا مني بأهمية هذا الموضوع ومسييس الحاجة إلى دراسته وبجته، اخترت موضوع الفتنة في القرآن الكريم.

أهداف البحث:

يهدف البحث بشكل عام إلى إلقاء الضوء على بيان أنواع الفتن وأسبابها في ضوء القرآن الكريم ، وإبراز أهمية موضوع الفتنة ، حيث يعد من أهم الموضوعات التي تعرض لها القرآن الكريم والسنة النبوية ويتجلى ذلك في الآيات الكثيرة التي عنت بالحديث عن موضوع الفتن. وتنبيه المسلمين من الفتن ببيان علاماتها وأسبابها وأنواعها ونماذجها ووسائل الوقاية منها.

منهجي في هذا البحث:

اتبعت في هذا البحث المنهج والخطوات التالية:

- 1 - تخرج الآيات القرآنية بذكر اسم السورة ورقم الآية، وتميز الآيات القرآنية بوضعها بين القوسين المزهرين بهذا الشكل ﴿﴾ وذلك في المتن.
- 2 - تخرج الأحاديث النبوية الشريفة بعزوها إلى كتب الحديث من صحاح وسنن ومسانيد، ونقل حكم العلماء عليها، ما عدا ما ورد في الصحيحين، وتميز الحديث النبوي الشريف بوضعه بين هلالين بهذا الشكل «».
- 3 - في حال الاقتباس النصي من كتاب معين أضع الاقتباس بين علامتي تنصيص. "
- 4 - توثيق الكتاب كاملاً عند أول اقتباس منه، وذلك بذكر اسم الكتاب، واسم المؤلف، واسم المحقق حال وجوده، ورقم الجزء، ورقم الصفحة، ورقم الطبعة، وتاريخها، ودار النشر.
- 5 - دونت المصادر والمراجع في الهوامش وفي الأخير الحقت فهرساً كاملاً للمصادر والمراجع التي استفدت منها في إعداد هذا البحث.

خطة البحث

هذه خطة البحث المعنون " أسباب الفتن ونماذجها في ضوء القرآن الكريم " وقسمت البحث إلى مقدمة وثلاثة فصول ، وبعض الفصول تحتوي على عدة مباحث ، ثم الخاتمة .
أما المقدمة فهي تحتوي الحمد والثناء ، وأهمية الموضوع ، سبب اختيار الموضوع ، منهج البحث ، وخطة البحث .

الفصل الأول : مفهوم الفتنة وعلاقتها بين الإبتلاء وما يتعلق بها

المبحث الأول : تعريف الفتنة لغةً واصطلاحاً والعلاقة بينهما

المبحث الثاني : المصطلح اللفظي للفتنة في القرآن الكريم

المبحث الثالث : العلاقة بين الفتنة والابتلاء

الفصل الثاني : أنواع الفتن ونماذجها في القرآن الكريم

المبحث الأول : فتنة الحياة الدنيا

المبحث الثاني : فتنة المال والولد

المبحث الثالث : فتنة النساء

المبحث الرابع : فتنة الفقر

المبحث الخامس : فتنة الصبر على المصائب الدنيوية

الفصل الثالث : أسباب الفتنة كما يصورها القرآن الكريم

المبحث الأول : إتباع الشيطان

المبحث الثاني : المعاصي

المبحث الثاني : مولاة الكافرين

المبحث الرابع : اتباع المتشابه

المبحث الخامس : ميادين الفتنة كما يصورها القرآن الكريم

الخاتمة : فيها أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها أثناء البحث .

قائمة المصادر والمراجع

المحتويات

الفصل الأول: مفهوم الفتنة وعلاقتها بين الإبتلاء وما يتعلق بها

المبحث الأول: تعريف الفتنة لغةً واصطلاحاً والعلاقة بينهما

أولاً: تعريف الفتنة في اللغة:

الفتنة في اللغة لها معانٍ متعددة منها: نقل ابن منظور عن الأزهري وغيره: "جماعٌ معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصلها مأخوذ من قولك: فتنتُ الفضة والذهب إذا أذبتهما لتمييز الرديء من الجيد"¹. وقال الخليل: "الفتنُ الإحراق، ويسمى الصائغ الفتان، وكذلك الشيطان، ومن هذا قيل للحجارة السود التي كأنها أحرقت بالنار؛ الفتين"². وتأتي الفتنة بمعنى الإعجاب بالشيء يقال: فتنته يفتنّه فتناً وفتنواً، ويقال فتّن الرجل المرأة بمعنى أعجب بها، وفتنته المرأة إذا ولته بحبها. وتأتي بمعنى الضلال والإثم، فالفاتن هو المضلل عن الحق، ولذلك سمي الشيطان فتّاناً وجمعها فتّاناً. وتأتي بمعنى الإزالة والإمالة؛ يقال: فتنت فلانة فلاناً، معناه أمالته عن القصد، والمرأة الفاتنة هي المميلة عن الحق. وتأتي بمعنى الإحراق بالنار، تقول: فتّن الشيء بالنار بمعنى أحرق، والفتين من الأرض المليئة بالحجارة السوداء. ويقال للأمة السوداء أنها مفتونة لأن سوادها يخيل للناظر إليها وكأنها محترقة. وأيضاً بمعنى العذاب تقول، فتّنهُ أي عذّبه ليحوّله عن رأيه، ورماه في شدة ليختبره، وتأتي أيضاً بمعنى السحر تقول: منظر فاتن وفتّان أي ساحر بجماله، يأسر الناظر إليه ويسحره من شدة جماله. وبمعنى البلبلة والاضطراب، تقول: أضمّدت الفتنة قبل استفحالها بمعنى القلاقل والاضطرابات³.

فمن خلال هذه الجولة السريعة في المعاجم اللغوية يجد الباحث أن الفتنة في اللغة تأتي على معانٍ متعددة، فهي بمعنى الاختبار والابتلاء، والإعجاب بالشيء والميل إليه، وهي بمعنى الضلال والإثم والإزالة والصرف والعذاب والحرق بالنار واللبلة والاضطرابات والسحر، وسوف تظهر هذه المعاني اللغوية بصورة جلية عند الحديث عن معاني الفتنة في القرآن الكريم.

¹ - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الأفرقي، لسان العرب، دار صادر ، بيروت ، 1388هـ-1968م ج 4. ص 3345.

² - أنيس، الدكتور إبراهيم ، وآخرون، المعجم الوسيط، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية. 1988م - ج 2. ص 673.

³ - الرازي ، الإمام أبي بكر ، مختار الصحاح ، دار نخضة مصر . القاهرة 1967م . ص 490،

ثانياً: تعريف الفتنة في الاصطلاح:

توافقت آراء المفسرين والعلماء على أن أصل الفتنة في الاصطلاح هو الابتلاء والاختبار لكنهم اختلفوا في التعريف الاصطلاحي للفتنة وذلك على النحو التالي:

1- يعرف الإمام الفخر الرازي الفتنة في الاصطلاح بقوله: "الفتنة تشديد المحنة، يقال فتن فلان عن دينه إذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه"¹.

2- ويعرفها الزمخشري بقوله: "الفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات والملاذ، وبالفقر والقحط، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال، وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم"².

3- ويعرفها الأستاذ سيد قطب بقوله: "هي مجموعة من الابتلاءات والمشاق في التكليف بقصد إعداد المسلم إعداداً حقيقياً لتحمل الأمانة، ولا يتم ذلك إلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، والصبر الحقيقي على الآلام، والثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء"³.

4- ويعرف الراغب الأصفهاني الفتنة بقوله: "والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد، كالبلية والمصيبة والقتل والعذاب، وغير ذلك من الأفعال الكريهة، ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضد ذلك"⁴.

ويلاحظ من خلال التعريفات السابقة أن الفتنة في الاصطلاح هي الابتلاء والاختبار بشدائد التكليف، وتكون في الخير والشر بغرض التمييز بين المؤمنين من المنافقين، كما يمكننا أن نقول الفتنة هي ابتلاء العبد واختباره في الخير والشر بغرض تمحيصه وذلك بشدائد التكليف.

¹ - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1405هـ. ج. 22. ص. 56.

² - الزمخشري، محمود بن عمر، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى، 1935م. ج. 3. ص. 425.

³ - قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق القاهرة بيروت، الطبعة الثالثة عشر، 1986م. ج. 5. ص. 2721.

⁴ - الأصفهاني، الراغب، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل، المفردات لغريب القرآن، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1999م. - ص. 372.

ثالثاً: العلاقة بين التعريف اللغوي والتعريف الاصطلاحي للفتنة:

الفتنة في اللغة تأتي على وجوه كثيرة ومعانٍ شتى من أهمها: الاختبار والابتلاء والعذاب والإحراق بالنار والضلال والبلبله والاضطراب والإعجاب بالشيء، وقد لاحظنا أن الفتنة في الاصطلاح تأتي بمعنى الاختبار والابتلاء وهذا يدل على دالتين:

الدلالة الأولى: أن الفتنة في الاصطلاح واحدة من المعاني اللغوية الكثيرة للفتنة.

الدلالة الثانية: أن المعنى الاصطلاحي للفتنة موافق لأهم المعاني اللغوية وهو الاختبار والابتلاء.

كما ويلاحظ الباحث أن المعنى الاصطلاحي للفتنة ينسجم مع معنى آخر من المعاني اللغوية وهو إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، والفتنة بمعناها الاصطلاحي تظهر المؤمن الصادق من الكاذب وتنبئ عن معدن من لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم، وتخرج الشوائب من قلوب المؤمنين الموحدين، حيث يخرج المؤمنون بعد البلاء والاختبار والتمحيص بقلوب صافية، وأفئدة مؤمنة، كما يحصل عند إدخال الذهب أو الفضة النار حيث يذهب الخبث ويبقى ما ينفع الناس.

إنّ طبيعة العلاقة بين التعريف اللغوي للفتنة والتعريف الاصطلاحي هي علاقة وثيقة قوية، إذ يُعدُّ المعنى الاصطلاحي للفتنة أحد أهم المعاني اللغوية لها وهو الاختبار والابتلاء، كما وينسجم المعنى الاصطلاحي مع معنى آخر من المعاني اللغوية وهو الحرق بالنار بغرض إظهار الجيد من الرديء وهو نفس الغرض الذي يحققه الاختبار والابتلاء عند المحن والشدائد.

المبحث الثاني : المصطلح اللفظي للفتنة في القرآن الكريم

ورد لفظ الفتنة في القرآن الكريم على عدة معانٍ وهي:

أولاً: الابتلاء والاختبار:

فقد وردت الفتنة بمعنى الابتلاء والامتحان وذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم منها:

1- قوله تعالى: ﴿الْم، أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 1-3].
فقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يمتحنون، أي أظن الذين جزعوا من أذى المشركين أن يُقنعَ منهم أن يقولوا إنا مؤمنون ولا يمتحنون في إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبين به حقيقة إيمانهم، وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي ابتلينا الماضين كالخليل ألقى في النار، وكقوم نشروا بالمناشير في دين الله فلم يرجعوا عنه¹.

ويقول الخازن: "قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أي لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم، والمعنى كلا لنختبرهم لنبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب، وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، يعني الأنبياء، فمنهم من نشر بالمناشير، ومنهم من قتل، وابتلي بنو إسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب، وقد قيل نزلت هذه الآيات في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يقبل منكم الإقرار بالإسلام حتى تهاجروا فخرجوا عامدين إلى المدينة فأتبعهم المشركون وقتلوه، فمنهم من قتل ومنهم قد بُجأ².

ويقول ابن جرير الطبري: "قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، أي وهم لا يبتلون، ومعنى "فتنا" أي اختبرنا الذين من قبلهم من الأمم ممن أرسلنا إليهم رسلنا فقالوا مثل ما قالت أمتك يا محمد بأعدائهم، وتمكيناً إياهم من أذاهم، كموسى إذ أرسلناه إلى بني إسرائيل، فابتليناهم بفرعون وملأهم، وكعيسى

¹ - القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الثانية، 1987م. ج13 ص337.

² - الخازن، علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم، لباب التأويل في معاني التنزيل، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1978م. ج3 ص375.

إذ أرسلناه إلى بني إسرائيل فابتلينا من اتبعه بمن تولى عنه، فكذلك ابتلينا أتباعك بمخالفين من أعدائك"¹.

2- وقوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [سورة طه: " الآية 40 "]. قال ابن عباس: اختبرناك اختباراً، وقيل ابتليناك ابتلاءً، والفتون وقوعه في محنة بعد محنة وخلصه الله تعالى منها، أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه في البحر في التابوت، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم أخذه بلحية فرعون حتى همّ بقتله، ثم ناوله الجمرة بدل الجوهرة ثم قتله القبطي وخروجه إلى مدين خائفاً². ويقول البيضاوي في قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾: وابتليناك ابتلاءً أو أنواعاً من الابتلاء على أنه جمع فتن أو فتنة. . . أي فخلصناك مرة بعد مرة وهو إجمال لما ناله في سفره من الهجرة من الوطن، والمشى راجلاً على حذر، وفقد الزاد، وأجر نفسه إلى غير ذلك"³.

3- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: 17 "]. أي امتحناهم بإرسال موسى . عليه السلام . إليهم، أو أوقعناهم في الفتنة بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم"⁴. ويقول القرطبي: "المعنى ابتليناهم، ومعنى هذه الفتنة والابتلاء الأمر باطلاعة، أي عاملناهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم فكذبوه فأهلكوا، فهكذا أفعال بأعدائك يا محمد إن لم يؤمنوا"⁵.

4- وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: 126]. فهذه الآية تتحدث عن المنافقين وتظهر أحوالهم، حيث يبين الله سبحانه وتعالى فيها أنهم يتلون بأصناف البليات، أو الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعاينون ما يظهر عليه من الآيات، ومع ذلك فهم لا ينتهون ولا يتوبون من نفاقهم ولا يعتبرون، وما هم المنافقون

¹ - الطبري، الإمام محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1987 م . ج. 1. ص. 121.

² - الخازن ، علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم، لباب التأويل في معاني التنزيل، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1978 م. ج. 3، ص. 304، 305.

³ - البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الرشيد، بيروت، 2001 م . ج. 2. ص. 47.

⁴ - المرجع السابق، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج. 2. ص. 382.

⁵ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج. 16، ص. 132.

يبتلون في كل عام بالقحط والشدة، والأمراض والأوجاع ومع ذلك فهم على حالهم من النفاق، وإهمالهم للنظر والاعتبار¹.

5- وقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: 155] أي ما هذا إلا اختبارك وامتحانك². ويقول الخازن: "والمعنى أن تلك الفتنة التي وقع فيها السفهاء لم تكن إلا فتنة أي اختبارك وابتلاؤك، أضللت بها قوماً فافتنوا، وهديت قوماً فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك"³. فكل هذه الآيات القرآنية قد وردت فيها كلمة الفتنة بمعنى الابتلاء والاختبار وهو أشهر معاني الفتنة وأكثرها وروداً في القرآن الكريم، حيث وردت كلمة الفتنة بهذا المعنى في أكثر من ثلاثين آية موزعين على بعض سور القرآن الكريم وأجزائه.

ثانياً: وتأتي الفتنة بمعنى الشرك بالله

حيث ورد ذكرها بهذا المعنى في عدة مواضع في القرآن الكريم منها:

1- قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: 193].

أي شرك، قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد وغيرهم. ويقول الشوكاني: "فيه الأمر بمقاتلة المشركين إلى غاية هي ألا تكون فتنة، وأن يكون الدين لله، وهو الدخول في الإسلام، والخروج عن سائر الأديان المخالفة له، فمن دخل في الإسلام وأقلع عن الشرك لم يحل قتاله، قيل المراد بالفتنة هنا الشرك، والظاهر أنها الفتنة في الدين على عمومها"⁴.

ويقول الخازن: "قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ أي وقاتلوا المشركين، ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي شرك، والمعنى: وقاتلوهم حتى يسلموا ولا يقبل من الوثني إلى الإسلام أو القتل بخلاف الكتابي، والفرق بينهما أن أهل الكتاب معهم كتب منزلة فيها شرائع وأحكام يرجعون إليها وإن كانوا قد حَرَفُوا وبدَّلُوا، فأَمَهِلَهُم الله بجرمة تلك الكتب من القتل وأمر بإصغارهم وأخذ الجزية منهم ينظروا في كتبهم ويتدبروها فيقفوا على الحق منها فيتبعوه، كفعل أهل الكتاب الذين عرفوا فأسلموا، وأما عبدة الأوثان فلم يكن لهم

¹ - البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج 1. ص 426.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 7، ص 282.

³ - الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 2، ص 255.

⁴ - الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)، دار الفكر العربي،

بيروت، الطبعة الثانية، 1967م. ج 1. ص 191.

كتاب يرجعون إليه ويرشداهم إلى الحق، فكان إمامهم زيادة في شركهم وكفرهم فأبى الله عز وجل أن يرضى عنهم إلا بالإسلام أو القتل¹.

2- وقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 217]. فالفتنة الإخراج أو الشرك.

ويقول الخازن في قوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾: أي الشرك الذي أنتم عليه أكبر من القتل.

3- وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: 39].

يقول الزمخشري: "قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي إلى أن لا يوجد فيهم شرك قط، [وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ]" ويضمحل عنه كل دين باطل ويبقى فيهم دين الإسلام وحده².

فكلمة الفتنة وردت في القرآن الكريم بمعنى الشرك في أكثر من موضع من كتاب الله، حيث أمر الله سبحانه في بعض هذه الآيات بقتال المشركين للقضاء على شركهم والتخلص منهم، وصرف العبادة له سبحانه، وبعض الآيات التي وردت فيها كلمة الفتنة بمعنى الشرك كانت رداً على المشركين الذين عيروا المؤمنين بقتالهم في الأشهر الحرم فبين الله لهم أن شركهم هو أكبر من قتلهم وقتالهم وأشد خطراً، كما أن قتالهم كان بأمر الله، أما شركهم فقد كان بأمر من شياطينهم واتباعاً لما كان يعبد آبائهم.

ثالثاً: وتأتي بمعنى الزبغ والضلال

حيث ورد ذكر الفتنة بهذا المعنى في أماكن كثيرة متعددة من كتاب الله منها:

1- قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: 7]. فمعنى ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ طلب الشبهات واللبس على المؤمنين حتى يفسدوا ذات بينهم، ويردوا الناس إلى زيغهم. ويقول الإمام ابن كثير: "قوله: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لا لهم³.

ويقول البيضاوي: "﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتبليس ومناقضة المحكم بالمتشابه"⁴.

¹ - الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 1، ص 122.

² - الزمخشري، الكشاف ، ج 2 ص 213.

³ - ابن كثير، الإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار التراث العربي، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1988م. ج1 ص 345.

⁴ - البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج 1 ص 149.

2- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ [المائدة:41]. يعني كفره وضلالته. ويقول القرطبي: "﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ أي ضلالته في الدنيا وعقوبته في الآخرة"¹. ويقول البيضاوي: "المعنى ضلالته أو فضيحته"².

3- وقوله تعالى: ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِينَ﴾ [الصفات:162]. فالفتنة في هذه الآية الكريمة بمعنى الزيف والضلal، وأهل التفسير متفقون على أن معنى هذه الآية ما أنتم بمضلين أحداً إلا من قَدَّرَ الله عزَّ وجل عليه أن يضل³. فمن خلال هذه الآيات وأقوال المفسرين يتبين لنا أن الفتنة قد وردت في القرآن الكريم بمعنى الزيف والضلal.

رابعاً: وتأتي الفتنة بمعنى العذاب

حيث ورد ذكرها بهذا المعنى في مواضع متعددة من القرآن الكريم منها:

1- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ [النحل:110]. فقلوه: [فُتِنُوا] يعني عَذَّبوا ومنعوا من الدخول في الإسلام، فتهم المشركون . ويقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾: " أي بالعذاب والإكراه على الكفر"⁴.

2- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾. [العنكبوت:10].

فقلوه تعالى: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي إذا أُوذِيَ في شأن الله ولأجله كما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان، وكما يفعله أهل المعاصي مع أهل الطاعات من تعذيبهم، وإيقاع الأذى عليهم، لأجل الإيمان بالله والعمل بما أمر به، وهذا الصنف من الناس إذا عذب في الله وأُوذِيَ من كل الكفار جزع من الأذى ولم يصبر عليه، وجعله في الشدة والعظم كعذاب الله فعندئذ يطيع الناس كطاعته لله⁵. ويقول القرطبي: "الآية نزلت في المنافقين، كانوا يقولون آمنا بالله، فإذا

¹ - القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج 6 ص 176.

² - البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج 1 ص 267.

³ - القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، ج 15 ، ص 30.

⁴ - الزمخشري، الكشاف ، ج 2 ص 613.

⁵ - الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)، دار الفكر العربي ،

بيروت ، الطبعة الثانية ، 1967م ج 4 ص 194.

أوذي في الله جعل فتنة الناس أي أذاهم كعذاب الله في الآخرة، فيرتد عن إيمانه وقيل جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله ولا يصبر على الأذية في الله¹.

3- وقوله تعالى: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات:14]. أي تقول لهم حزنة النار ذوقوا عذابكم وإحراقكم بالنار، وهذا العذاب هو الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا بقولكم فأتنا بما تعدنا². والخطاب في قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ للكفار يوم القيامة حيث يقال لهم ذوقوا عذابكم، وقوله: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي في الدنيا، وقال هذا ولم يقل هذه لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب³.

4- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج:10]. فمعنى فتنوهم: عذبوهم بالنار وأحرقوهم⁴.

فهذه الآيات القرآنية وأقوال المفسرين تبين أن الفتنة قد وردت في القرآن الكريم بمعنى العذاب، ويلاحظ أن هذه الآيات تبين العذاب الذي انصب على المؤمنين في بداية الدعوة الإسلامية وذلك بغرض فتنتهم عن دينهم الجديد وإعادةهم إلى ما كان يعبد آباؤهم وأجدادهم من حجارة وأوثان.

خامساً: وتأتي الفتنة بمعنى القتل والهلاك

حيث ورد ذكرها بهذا المعنى في أماكن متعددة من القرآن الكريم منها:

1- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء:101] فقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ "يعني يغتالكم وتقتلكم في الصلاة"⁵. ويقول الزمخشري في تفسير هذه الآية: "المراد بالفتنة القتال والتعرض بما يكره"⁶. ويقول النسفي في تفسيرها: "إن خشيتهم أن يقصدكم الكفار بقتل أو جرح أو أخذ"⁷.

1 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 13، ص 242.

2 - النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين، مدارك التنزيل وحقائق التأويل "دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، 1419 هـ - 1998 م، ج 2، ص 599.

3 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 7، ص 38

4 - الزمخشري، الكشاف، ج 4، ص 719.

5 - الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 1، ص 418.

6 - البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج 1، ص 278.

7 - النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج 1، ص 278.

2- وقوله تعالى: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ [النور: 63]. فقوله: ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة في الدنيا أو قتل أو زلازل وأهوال، أو تسليط سلطان جائر، أو قسوة قلب عن معرفة الرب، أو إسباغ النعم استدراجاً.

ويقول الشوكاني: "والفتنة هنا غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن، وقيل هي القتل، وقيل الزلازل، وقيل تسلط سلطان جائر عليهم، وقيل الطبع على قلوبهم"¹.

فقد وردت الفتنة في هاتين الآيتين بمعنى القتل، ففي الآية الأولى يحذر الله سبحانه المؤمنين من كيد المشركين لهم وغدرهم وقتلهم أثناء الصلاة مطالباً إياهم بأخذ الحيطة والحذر منهم، وفي الآية الثانية يحذر الله سبحانه وتعالى المخالفين لأوامره أن يصيبهم قتل في الدنيا، بأي نوع من أنواع القتل، وبأي طريقة ينتقم الله بها منهم لقاء كفرهم وجحودهم ومخالفتهم لأوامره، وفي كلا التحذيرين وردت كلمة الفتنة بمعنى القتل.

سادساً: وتأني الفتنة بمعنى الصدِّ عن الإيمان:

حيث ورد ذكرها بهذا المعنى في أماكن متعددة من القرآن الكريم منها:

1- قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: 83]. يبين الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآية الكريمة أنه بالرغم من مشاهدة قوم فرعون كل تلك المعجزات الباهرة التي أيد الله بها موسى - عليه السلام -، فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، وإنما ذكر الله - عز وجل - هذا تسلياً لنبيه صلى الله عليه وسلم، حيث كان كثير الاهتمام بإيمان قومه، وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به، واستمرارهم على الكفر والتكذيب، فبين الله - سبحانه وتعالى - بأن له أسوة بالأنبياء، وقوله: ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ أي يصرفهم ويصدِّهم عن الإيمان، وإنما قال ذلك لأن فرعون قد طغى وبغى في الأرض، وكان كثير القتل والتعذيب لبني إسرائيل بهدف ثنيهم عن الإيمان وصدِّهم عن صراط الله المستقيم². ويقول الشوكاني في قوله تعالى: ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ "أي يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذي كان ينزله بهم"³.

¹ - الشوكاني، فتح القدير، ج 4 ص 58.

² - الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 2، ص 456، 475 "بتصرف".

³ - الشوكاني، فتح القدير، ج 2 ص 466.

2- وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:49].

يقول ابن عباس . رضي الله عنهما . في سبب نزول هذه الآية: " اجتمع قوم من الأحرار منهم ابن صوريا وكعب بن أسد وابن صلوبا وشاس بن عدي وقالوا: اذهبوا بنا إلى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر فأتوه فقالوا: قد عرفت يا محمد أننا أحرار اليهود وإن اتبعناك لم يخالفنا أحد من اليهود، وإن بيننا وبين قوم خصومة فنحاكمهم إليك فاقض لنا عليهم حتى نؤمن بك، فأبى رسول الله . صلى الله عليه وسلم .، فنزلت هذه الآية. ومعنى الفتنة في قوله تعالى: ﴿أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ يصدوك ويردوك¹.

ويقول الشوكاني في تفسير هذه الآية: "﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ أي يضلوك عنه ويصرفوك بسبب أهوائهم التي يريدون منك أن تعمل عليها وتؤثرها"². ويقول الخازن: "وقوله تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ يعني واحذر يا محمد هؤلاء اليهود الذين جاءوا إليك أن يصرفوك ويصدوك بمكرهم وكيدهم فيحملوك على ترك العلم ببعض ما أنزل الله إليك في كتابه واتباع أهوائهم"³.

3- وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أُوحِينَا إِلَيْكَ لِفَتَرٍ عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تَخْذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء:73] . فهذه الآيات القرآنية تبين أن الفتنة قد وردت في القرآن الكريم بمعنى الصّدِّ عن الإيمان، وتظهر في الوقت نفسه مدى المحاولات الحثيثة من قبل أهل السلطان لثني النبي صلى الله عليه وسلم عن دينه وصدّه عن إيمانه، في محاولة لاستئصال الدعوة الجديدة ابتداءً من القيادة، والقضاء على الدين الجديد انطلاقاً من رأس الهرم، وهذا يلاحظ من خلال التحذيرات القرآنية للنبي صلى الله عليه وسلم من محاولات الكفار من مغبة فتنة وصدّه عن إيمانه، وهو تحذير ضمني من الله .. لكل أصحاب الدعوات من محاولات أعداء الأديان في كل زمان وفي كل مكان⁴.

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 6، ص 204.

² - الشوكاني، فتح القدير، ج 2 ص 48.

³ - الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 2، ص 52.

⁴ - سيد قطب، في ظلال القرآن - ج 4 ص 2245 " بتصرف ".

سابعاً: وتأتي الفتنة بمعنى الجواب والمعذرة:

1- وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الإسراء: 73].

أي معذرتهم التي يتوهمون أن يتخلصوا بها، من فتنة الذهب إذا خلصته، وقيل جوابهم وإنما سمّاه فتنة لأنه كذب، أو لأنهم قصدوا به الخلاص، فمن فرط حيرتهم ودهشتهم يكذبون ويحلفون بأنهم لم يكونوا مشركين مع علمهم أن كذبهم وحلفهم لا ينفعهم شيئاً، كما يقولون ربنا أخرجنا من النار وقد أيقنوا بالخلود فيها¹.

قال ابن عباس: يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص من ذنوبهم، ولا يتعاضم عليه ذنب أن يغفره فإذا رأى المشركون ذلك قالوا: إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك فتعالوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين فقال الله . تعالى .: أما إذ كنتموا الشرك فأختموا على أفواههم، فيختم على أفواههم، فتنتطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون فعند ذلك يعرف المشركون أن الله لا يكتف حديقاً².

فهذا الموقف الذي يكون عليه المنافقون يوم القيامة من الحزي والمهانة والكذب، وشهادة أعضائهم عليهم بما كانوا يعملون ليحعل كل ذي لب أن يقف وقفة صادقة مع نفسه، وأن يخلص العبادة لله الذي يعلم السر وأخفى، فإذا كان إبطان الكفر وإظهار الإيمان قد يمرر على العباد في الدنيا، فإن نتائجه الوخيمة، وعواقبه الشديدة، ستقلب على صاحبها وبالأحسنة وحسرة وناراً يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ثامناً: تأتي الفتنة بمعنى العبرة:

ومنه قوله تعالى: ﴿... رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: 85] . "أي لا تنصرهم علينا فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين، أو لا تمتحننا بأن تعذبنا على أيديهم، وقال مجاهد: المعنى لا تهلكننا بأيدي أعدائنا ولا تعذبنا بعذاب من عندك فيقول أعداؤنا لو كانوا على حق لم نسلط عليهم فيفتنوا"³. ويقول ابن كثير: "قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك، وروي عن مجاهد

¹ - البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج 1. ص 297.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 6، ص 377.

³ - المرجع السابق، الجامع لأحكام القرآن، ج 8. ص 341.

قوله: لا تعذبنا بأيدي آل فرعون ولا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنوا بنا"¹.

ويقول الأستاذ سيد قطب: "المعنى ألا يمكن القوم الظالمين منهم، فيظن القوم أن تمكنهم من المؤمنين بالله دليل على أن عقيدتهم هم أصح، ولذلك انتصروا وهزم المؤمنون، ويكون هذا استدراجاً لهم من الله وفتنة ليلجوا في ضلالهم، فالمؤمنون يدعون الله أن يعصمهم من تسلط الظالمين عليهم ولو لاستدراج الظالمين، فالمؤمن لا يتمنى البلاء ولكن يثبت عند اللقاء"².

فمن خلال تفسير هذه الآية تبين لنا من أقوال بعض المفسرين أن الفتنة هنا بمعنى العبرة، فهؤلاء القوم يدعون ربهم ألا يعذبهم وألا يسلط عليهم غيرهم، وألا يكونوا عبرة لغيرهم ولو كان الهدف من ذلك استدراج غيرهم.

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2 ، ص 428.

² - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3. ص 1816.

المبحث الثالث: العلاقة بين الفتنة والابتلاء

من خلال البحث في معاني الفتنة في القرآن الكريم، يلاحظ الباحث أنَّ غالبية المواضع التي وردت فيها كلمة الفتنة أو إحدى مشتقاتها، قد وردت بمعنى الابتلاء والاختبار، وكذلك عند الحديث عن المعنى الشمولي للفتنة في القرآن الكريم، يتبين لنا أن القرآن يتحدث عن الفتنة بمعناها الشمولي دون ذكر كلمة الفتنة، وكانت كلُّ المعاني تنصب على معنى واحد وهو الابتلاء والاختبار سواء في حديث القرآن الكريم عن فتنة الحياة الدنيا أو المال أو الملك أو النساء أو فتن الأنبياء والرسل أو الأمم السابقة وهذا يدفعنا إلى الحديث عن الفرق بين الفتنة والابتلاء ومحاوله إجراء مقارنة بينهما للتعرف على وجه الشبه والاختلاف بينهما:

1- فالتأمل في معاني الفتنة في القرآن الكريم يلاحظ أن الفتنة أعمُّ وأشمل من الابتلاء فالفتنة قد وردت في القرآن الكريم بمعنى الابتلاء والاختبار، والشرك، والزيف والضلال، والعذاب، والقتل والهلاك، والصد عن الإيمان، والإثم والنفاق والجواب والمعدرة، والجنون، والاختلاف وعدم اجتماع الكلمة، والعبرة والالتقاء بالشيء، ونلاحظ أن الابتلاء معنى من المعاني الكثيرة التي وردت للفتنة في القرآن الكريم.

2- كما أن التأمل للآيات التي وردت فيها الفتنة باللفظ بمعنى الابتلاء، يلاحظ أن الفتنة أشدُّ من الابتلاء، ويظهر ذلك واضحاً جلياً من خلال التفريق بين الفتنة التي وردت بمعنى الابتلاء وبين الابتلاء في آية أخرى، حيث يقول الله - سبحانه وتعالى - في شأن إبراهيم - عليه السلام -: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 125] ويقول في شأن موسى عليه السلام -: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: 40]. فالآية الأولى قيل في معنى الابتلاء الذي ورد فيها أن الله اختبر إبراهيم عليه السلام - بكلمات أوحاها إليه وأمره أن يعمل بهنَّ، فأداهنَّ حق التأدية، وقام بموجبهنَّ حق القيام، وعمل بهن من غير تفريط ودون أن ينتقص منهنَّ شيئاً¹.

ويقول الإمام القرطبي في تفسير الابتلاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾: "ابتلاه الله بالطهارة؛ خمس في الرأس وخمس في الجسد: قصُّ الشارب، والمضمضة، والاستنشاق،

¹ - الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج. 1 ، ص. 77.

والسواك، وفرق الشعر، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والاختتان، ونتف الإبط، وغسل مكان الغائط والبول بالماء"¹. وبهذا يظهر لنا أن إبراهيم . عليه السلام . قد ابتلي بأوامر ونواه، فقام بهنَّ حق القيام، وأداهنَّ أحسن التأدية من غير تفريط ولا توان². فابتلاء الله . سبحانه . لإبراهيم . عليه السلام . كان عبارة عن اختباره بمجموعة من التكاليف التي كلفه بها، وظهر فيها عزمه وامتناله لأوامر الله، وأتى بها كاملة، وجوزي عليها من الله أعظم الجزاء.

وأما فتنه نبي الله موسى . عليه السلام . فقد كانت مجموعة من المحن والابتلاءات الشديدة التي مرَّ بها عبر سنوات طويلة من الابتلاء والتمحيص والمحنة. يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَفْتَنَّاكَ﴾: "قال ابن عباس: اختبرناك بأشياء قبل الرسالة، أولها حملته أمه في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه في اليم، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم جره بلحية فرعون، ثم تناوله الجمرة بدل الدُّرة فدرأ ذلك عنه قتل فرعون، ثم قتله القبطي وخروجه خائفاً يترقب، ثم رعايته للغنم ليتدرب بها على رعاية الخلق"³. ويقول الزمخشري: "قوله: ﴿وَفْتَنَّاكَ﴾: أي فتنك ضرباً من الفتن، وقد سأل سعيد بن جبير ابن عباس . رضى الله عنه . فقال: المعنى خلصناك من محنة بعد محنة، فقد ولد في عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا ابن جبير، وألقته أمه في البحر، وهمَّ فرعون بقتله، وقتل قبطياً، وأجرَّ نفسه عشر سنين، وضلَّ الطريق وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة، وكان يقول في كل واحدة فهذه فتنة يا ابن جبير"⁴. ومن هنا يتبين لنا سرُّ التعبير عمَّا كلف به نبي الله إبراهيم . عليه السلام . بالابتلاء، وما امتحن به نبي الله موسى من شدائد الأمور بالفتنة، فإن الابتلاء بالقتل، وأجرة النفس والغربة عن الوطن، والشعور بالخوف من بطش فرعون وملأه، بالإضافة إلى وضعه في التابوت وهو صغير، وإلقائه في اليم، وتحريم المراضع عليه، وشدِّه للحية فرعون، وتعرضه لخطر قتله في الصغر كل ذلك أشدُّ ولا شك من الابتلاء بمجموعة من التكاليف الشرعية والأوامر الربانية، ومما يدل أيضاً على أن الفتنة يقصد بها شدة الابتلاء والاختبار قوله تعالى: ﴿وَأَلِّوْا اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقاً، لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: 16-17] ، فجعل الله . سبحانه . النعمة فتنة لأنه قُصد بها المبالغة في اختبار المنعم عليه لذلك يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾

1 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 2 ، 105.

2 - الزمخشري، الكشاف ، ج 1. ص 183.

3 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 11 ، ص 209.

4 - الزمخشري، الكشاف ، ج 3. ص 63..

﴿: لنختبرهم فيه كيف يشكرون ويجوز أن يكون المعنى: وألو استقام الجرن الذين استمعوا على طريقتهم التي كانوا عليها قبل الإسماع، ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام¹ .

3- كما نلاحظ أيضاً عند التفريق بين الفتنة والابتلاء أن الفتنة قد تأتي أحياناً على معان غير حسنة كالشرك والكفر والإضلال والصد عن سبيل الله والتعذيب بالنار والجنون في حين أن الابتلاء يأتي لمعنى واحد وهو الاختبار، لذلك نجد أن أفعال الابتلاء مسندة إلى الله . سبحانه وتعالى . بالاسم الظاهر ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: 124] ، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: 92] ، ولو تتبعنا الآيات القرآنية التي وردت فيها الفتنة أو إحدى مشتقاتها للاحظنا أن الله . تعالى . لم يسند أفعال الفتنة إلى اسمه الظاهر، ذلك لأنه من الأدب عدم إسنادها إليه . سبحانه . لورودها أحياناً بمعانٍ غير لائقة بالله . سبحانه .، لذلك لا يليق بجلال الله ولا يصح إطلاق اسم الفتان عليه . سبحانه .، وذلك اشتقاقاً من قوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ لأن هذا الاسم في العرف صفة ذم لا تليق بالله² .

فمن خلال هذه المقارنة يتبين لنا أن هناك فرقاً بين الفتنة والابتلاء سواء من الناحية اللغوية أو من ناحية المعنى الاصطلاحي . فمن الناحية اللغوية وردت الفتنة في القرآن الكريم على عدة معان، وكان الابتلاء واحداً من هذه المعاني، أي أن الفتنة أشمل وأعم من الابتلاء، أما من الناحية الاصطلاحية فإذا كان الابتلاء بمعنى الاختبار والتمحيص فإن الفتنة هي أشد أنواع الابتلاء وأقصى ألوان التمحيص والاختبار.

¹ - الزمخشري، الكشاف ، ج 4 ص 616.

² - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 22 ص 56.

الفصل الثاني : أنواع الفتن ونماذجها في القرآن الكريم

يتحدث القرآن الكريم عن الفتن بأنواعها ونماذجها في أماكن كثيرة، ومواقع متعددة، ويلاحظ أن غالبية الآيات القرآنية التي تتحدث عن هذه الأنواع والنماذج في نطاق المفهوم الشمولي للفتنة، ودون ذكر مصطلح الفتنة أو شيء من مشتقاته، ويتميز الحديث القرآني عن الفتن وأنواعها ونماذجها بالإسهاب والتفصيل وذلك نظراً لخطورتها، وتحذير المسلمين منها، وبغرض أخذ العبرة والعظة من خلال الأمثلة والنماذج القرآنية التي تحدثت عن أفراد وملوك وأمم وقعوا في مستنقعات هذه الفتن فآل بهم الأمر إلى خسران الدنيا والآخرة، كما تحدثت الآيات القرآنية عن مجموعة من الأنبياء والرسل فتنوا في دينهم، فكانوا قدوة لأمتهم وللامم من بعدهم حيث ضربوا أروع الأمثلة في الصبر على البلاء.

ولقد تحدث الباحث خلال صفحات هذا الفصل عن ثمانية أنواع من الفتن وأورد نماذجها بشيء من التفصيل، وذلك انسجاماً مع أسلوب القرآن الكريم حيث فصل في هذه المواضع، وكذلك لما يراه الباحث من أن هذا الفصل يعدُّ صلب هذا الموضوع وزاوية مهمة من زواياه، وقد قسم الباحث هذا الفصل إلى ثمانية مباحث تحدث خلالها عن فتنة الحياة الدنيا، وفتنة المال والولد، وفتنة النساء، وفتنة الملك، وفتنة الفقر، وفتنة الصبر على المصائب الدنيوية، وفتنة الإسراف والتبذير، وفتن تقع في آخر الزمان والدار الآخرة، كفتنة المسيح الدجال، وفتنة القبر، وكل ذلك سيتضح بالتفصيل إن شاء الله تعالى خلال صفحات هذا الفصل.

المبحث الأول: فتنة الحياة الدنيا

ينظر القرآن الكريم إلى الحياة الدنيا نظرة واقعية فيلفت الأنظار بشتى الأساليب والعبارات بأن هذه الحياة الدنيا دار متاع زائل، وأن هذا المتاع هو قليل بالنسبة لما عند الله لأنَّ ما عند الله خير وأبقى، ويمكن تقسيم ذلك إلى أربعة محاور:

المحور الأول: بيان حقيقتها والتحذير من فتنها:

حيث يحذر الله سبحانه وتعالى من فتنة الحياة الدنيا والاعترار بمتاعها الزائل الفاني وذلك في آيات كثيرة منها:

1- قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: " الآية 185 "]. أي تغرُّ المؤمن وتخدعه فيظن طول البقاء، وهي فانية، والمتاع ما يتمتع به وينتفع كالفأس والقدر والقصعة ثم يزول ولا يبقى ملكه، وقد شبه بعض المفسرين متاع الدنيا بسرعة زواله بخضرة النبات، قاله الحسن، وقال قتادة: هي متاع متروك فينبغي أن يأخذ الإنسان من هذا المتاع بطاعة الله سبحانه ما استطاع، والغرور هو الشيطان يغرُّ الناس بالتمنية والمواعيد الكاذبة. ويقول الإمام الشوكاني: "شبه الله سبحانه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على من يريده وله ظاهر محبوب وباطن مكروه¹.

فإذا كانت الحياة الدنيا هذه حقيقتها وماهيتها، وذلك بشهادة من خالقها. سبحانه .، فعلى كل عاقل أن يحذر من الوقوع في فتنها وأن يأخذ منها ما يعينه على طاعة الله فيها، وأن يستقلل متاعها، وأن يطمع فيما عند الله، فما عند الله خير وأبقى.

2- وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 32]. فقد جعل الله . سبحانه . أعمال الدنيا لعباً وهواً واشتغالاً بما لا يعني ولا يعقب منفعة كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ دليل على أنَّ ما عدا أعمال المتقين لعب وهو².

واللعب هو الفعل الذي لا يقصد به فاعله مقصداً صحيحاً من تحصيل منفعة أو دفع مضرة، كأفعال الأولاد الصغار التي يتلذذون بها لذاتها، واللهو هو ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه ويهّمه، والمعنى أنَّ

¹ - الشوكاني، فتح القدير، ج 1 ص 408.

² - الزمخشري، الكشاف، ج 2 ص 16.

هذه الحياة الدنيا التي قال الكفار أنه لا حياة غيرها ليست إلا لعباً ولهواً لعدم استتباعها لشيء من الفوائد والمنافع، أو هي دائرة بين عمل لا يفيد في العاقبة كلعب الأطفال، وعمل له فائدة عاجلة سلبية كفائدة اللهو وهو دفع الهموم والآلام¹.

واعلم أن نفس هذه الحياة لا يمكن ذمها، لأنَّ هذه الحياة لا يصح اكتساب العادات الأخروية إلا فيها ولهذا السبب حصل في تفسير هذه الآية قولان:

القول الأول: إنَّ المراد منه حياة الكفار، والسبب في وصف حياة هؤلاء بهذه الصفة أنَّ حياة المؤمن يحصل فيها أعمال صالحة فلا تكون لعباً ولهواً.

والقول الثاني: أن هذا عام في حياة المؤمن والكافر والمراد منه اللذات الحاصلة في هذه الحياة والطيبات المطلوبة، وإنما سمّاها باللعب واللهو، لأنَّ الإنسان حال اشتغاله باللعب واللهو يلتذ به، ثم عند انقراضه وانقضائه لا يبقى منه إلا الندامة، فكذلك هذه الحياة لا يبقى عند انقراضها إلا الحسرة والندامة، واعلم أن تسمية هذه الحياة باللعب واللهو فيه وجوه:

1- أن مدة اللهو واللعب قليلة سريعة الانقضاء والزوال ومدة هذه الحياة كذلك.

2- أن اللعب واللهو إنما حصل عند الاغترار بظواهر الأمور، وأمّا عند التأمل التام والكشف عن حقائق الأمور لا يبقى اللعب واللهو أيضاً، وكذلك فإنَّ اللهو واللعب لا يصلحان إلا للجهال المغفلين أمّا العقلاء فقلما يحصل لهم خوض في اللعب واللهو، فكذلك التلذذ بطيبات الدنيا والانتفاع بخيراتهما لا يحصل إلا للمغفلين الجاهلين بحقائق الأمور.

3- أن اللعب واللهو ليس له عاقبة محمودة، وكذلك الاشتغال بمتاع الدنيا والاعترار به، تثبت مجموع هذه الوجوه أن اللذات والأحوال الدنيوية لعب ولهو وليس لها حقيقة معتبرة².

فهذا يبين أن الانشغال بالدنيا الفانية وبتناؤها الزائل كاللعب واللهو الذي لا يجدي نفعاً ولا يحقق نتيجة مرجوة، بل يحصل به متعة مؤقتة سرعان ما يزول كالممتعة نفسها التي تتحقق لمن شغل نفسه بالدنيا ومتاعها، وهذا تحذير لأصحاب العقول النيرة والقلوب الواعية بعدم الافتتان بهذا المتاع الزائل الفاني والانشغال بالأعمال الصالحة التي تحقق للمشغلين بها سعادة الدارين الدنيا والآخرة ونعيماً مقيماً في الآخرة لا موت فيه ولا زوال له.

¹ - رضا، السيد محمد شيد، تفسير المنار، دار المنار، القاهرة، الطبعة الثانية، 1953م، ج 7، ص 363، 364.

² - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 6، ص 210، 211.

3- وقوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64] . أي وما هي لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يفرقون، وفيه ازدياء بالدنيا وتصغير لأمرها، وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة، واللهو ما يتلذذ به الإنسان فيلهيه ساعة ثم ينقضي، وقوله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي الحياة، أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة لا موت فيها فكأنها في ذاتها حياة¹.

وفي بيان مناسبة هذه الآية لما قبلها يقول الأستاذ أحمد مصطفى المراغي: “لما ذكر في الآيات السابقة أنهم يعترفون بأن الله هو الخالق، وأنه هو الرازق، وهم مع ذلك يتركون عبادته ويعبدون من دونه الشركاء اغتراراً بزخرف الدنيا وزينتها أردف ذلك بأن هذه الدنيا باطل وعبث، وإنما الحياة الحقّة هي الحياة الآخرة التي لا فناء بعدها، فلو أوتوا شيئاً من العلم ما آثروا تلك على هذه”².

ويقول الأستاذ سيد قطب في تفسير هذه الآية: “فهذه الحياة الدنيا في عمومها ليست إلا لهواً ولعباً حين لا ينظر فيها إلى الآخرة، وحين تكون هي الغاية العليا للناس، وحين يصبح المتاع فيها هو الغاية من الحياة، فأما الحياة الفائضة بالحياة هي الحيوان لشدة ما فيها من الحيوية والامتلاء، والقرآن لا يعني بهذا أن يحض على الزهد في متاع الحياة الدنيا والفرار منه وإلقائه بعيداً، إنّ هذا ليس روح الإسلام ولا اتجاهه، إنما يعني مراعاة الآخرة في هذا المتاع والوقوف فيه عند حدود الله، كما يقصد الاستعلاء عليه فلا تصبح النفس أسيرة له، يكلفها ما يكلفها فلا تتأبى عليه، والمسألة مسألة قيم يزنها بميزانها الصحيح فهذه قيمة الدنيا وهذه قيمة الآخرة كما ينبغي أن يستشعرها المؤمن، ثم يسير في متاع الحياة الدنيا على ضوئها، مالكاً لحريته معتدلاً في نظرته: الدنيا لهو ولعب، والآخرة حياة مليئة بالحياة”³.

4- وقوله تعالى: ﴿. . . فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: 33].

أي أنها فانية زائلة، والغرور الشيطان يوسوس بالمعاصي ويؤمل بالمغفرة والمعنى لا تغرنكم الحياة الدنيا بحيث تتوهموها الباطل حقاً والضرر نفعاً وإذا أريد بالغرور الشيطان فذلك أشد في التحذير لما تقرر من عداوة الشيطان للإنسان كما قال تعالى محذراً من فتنته: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ. . .﴾ [الأعراف: 27]

¹ - النسفي ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، ج 2. ص 297، 298.

² - تفسير المراغي - م 7 ج 21 ص 19.

³ - سيد قطب ، في ظلال القرآن - ج 2. ص 2751.

5- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: 5] . "أي فلا تخدعنكم الدنيا ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله، [وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ] أي الشيطان فإنه يمنيكم الأمان الكاذبة ويقول إن الله غني عن عبادتك وعن تكذيبك"¹.

ويقول الإمام الرازي: "المكلف قد يكون ضعيف الذهن قليل العقل سخي الرأي فيغتر بأدنى شيء، وقد يكون فوق ذلك فلا يغتر به، ولكن إذا جاءه غارٌّ وزين له ذلك الشيء وهون عليه مفسده وبين له منافعه يغتر لما فيها من اللذة مع ما ينضم إليه من دعاء ذلك الغار إليه، وقد يكون قوي الجأش غزير العقل فلا يغتر ولا يغتر"².

6- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: 36] . تبين هذه الآية الكريمة أن الحياة الدنيا لعب وهو حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى، حين تقاس لذاتها مقطوعة عن منهج الله، ذلك المنهج الذي يجعلها مزرعة الآخرة، ويجعل إحسان الخلافة فيها هو الذي يستحق وراثة الدار الباقية، فالإيمان والتقوى في الحياة الدنيا هو الذي يخرجها عن أن تكون لعباً وهواً، ويطبعها بطابع الجد ويرفعها عن مستوى المتاع الحيواني إلى مستوى الخلافة الراشدة المتصلة بالملا الأعلى، ويومئذ لن يكون ما يبذله المؤمن المتقى من عرض هذه الحياة الدنيا ضائعاً ولا مقطوعاً فعنه ينشأ الأجر الأوفى في الدار الأبقى³.

7- ويقول - سبحانه -: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: 20].

أراد ان الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور وهي اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام وهي: العذاب الشديد والمغفرة ورضوان الله، وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاماً عقوبة لهم على جحودهم،

¹ - النسفي ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ج 2. ص 380.

² - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 20. ص 34

³ - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 6. ص 3302.

كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين¹ ويقول الإمام الرازي: "قوله: [وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ] يعني لمن أقبل عليها وأعرض بها عن طلب الآخرة، قال سعيد بن جبير: الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم الوسيلة"².

فالقرآن الكريم يزن الأمور بميزان صحيح حين يكشف عن حقيقة الدنيا مبيناً أنها مجرد لهو ولعب وتفاجر، وأن متاعها متاع زائل وعلى المؤمن إذن أن يزن أعماله وأن يحذر من الوقوع في فتن هذه الحياة الدنيا أو أن يغترّ بها، وأن يطمع فيما عند الله فما عند الله خير وأبقى.

الخور الثاني: تحقيرها والتقليل من متاعها:

فقد بين الله . سبحانه وتعالى . في آيات كثيرة أن متاع الدنيا قليل وأن ما عند الله خير وأبقى، فتارة عن طريق ضرب الأمثال كما في قوله تعالى:

1- ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: 12]
. هذه الآية تنزل منزلة البيان لحملة (متاع الحياة الدنيا) المؤذنة بأن تمتعهم بالدنيا ما هو إلا لمدة قصيرة، فبينت الآية أن التمتع صائر إلى زوال، وأطربت فشبهت هيئة التمتع بالدنيا لأصحابها بهيئة الزرع في نضارته ثم في مصيره إلى الحصد، كما وشبهت الآية حالة الحياة في سرعة تقضيها وزوال نعيمها بعد البهجة به وتزايد نضارتها بحال نبات الأرض في ذهابه حطاماً ومصيره حصيداً³.

ذلك مثل الحياة الدنيا التي لا يملك الناس إلا متاعها حين يرضون بها، ويقفون عندها، ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى.

هذا هو الماء ينزل من السماء، وهذا هو النبات يمتصه ويختلط به فيمرع ويزدهر وها هي الأرض كأنها عروس مجلوة تتزين لعرس وأهلها مزهوون بها يظنون أنها بجدهم ازدهرت وبارادتهم تزينت وأنهم أصحاب الأمر فيها، لا يغيّرها عليهم مغيّر، ولا ينازعهم فيها منازع، وفي وسط هذا الخصب الممرع وفي غمرة هذا الاطمئنان الوثائق أتاهم أمر الله فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، وهذه هي الدنيا

¹ - الزمخشري، الكشاف ، ج. 4 ص 466.

² - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 19 ص 235.

³ - التحرير والتنوير " - م 6 ج 11 ص 1401.

التي يستغرق فيها بعض الناس ويضيعون الآخرة كلها لينالوا منها بعض المتاع لا أمن فيها ولا اطمئنان ولا ثبات فيها ولا استقرار، ولا يملك الناس من أمرها شيئاً إلا بمقدار، فإما بعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس في لحظة وقد أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فإذا هي حصيداً كأن لم تغن بالأمس، ودار السلام التي يدعو إليها الله ويهدي من يشاء إلى الصراط المؤدي إليها¹.

2- ويضرب الله مثلاً آخر في كتابه يبين فيه قلة متاع الدنيا وسرعة زوالها وفنائها حيث يقول . سبحانه :: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:45] .

ويقول ابن عطية الأندلسي في تفسير هذا المثل القرآني: "فيه تشبه حال المرء في حياته وماله وعزته وزهوه وبطره بالنبات الأخضر اللين بسبب المطر النازل ثم يعود بعد ذلك هشيماً ويصير إلى عدم، فمن كان له عمل صالح يبقى في الآخرة فهو الفائز، فكأن الحياة بمثابة الماء والخضرة، والنضارة بمنزلة النعيم والعزة"².

ويقول الإمام الرازي: "هذا المثل يضربه الله . سبحانه وتعالى . ليدل به على حقارة الدنيا وقلة بقائها حيث يشبه الله . سبحانه . الحياة الدنيا بنبات يربو ويهتز ويحسن منظره ثم يحف ذلك النبات حتى يصبح هشيماً أي نباتاً متفتتاً متكسراً، فإذا صار كذلك طيرته الرياح وذهبت بتلك الأجزاء إلى سائر الجوانب، وأحوال الدنيا أيضاً كذلك تظهر أولاً في غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلاً قليلاً ثم تأخذ في الانحطاط إلى أن تنتهي إلى الهلاك والفناء ومثل هذا الشيء ليس للعاقل أن يتهجج به"³. وتارة يوجه القرآن الكريم الأنظار إلى ما عند الله لأن ما عند الله خير وأبقى، وذلك في آيات كثيرة منها:

1- قوله . تعالى :: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ﴾ آل عمران:14].

قال العلماء: ذكر الله . تعالى . أربعة أصناف من المال كل نوع من المال يتمول به صنف من الناس، أما الذهب والفضة فيتمول بها التجار، وأما الخيل المسومة فيتمول بها الملوك، والخيل المسومة هي

¹ - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3. ص 1775.

² - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ج 10 ص 408.

³ - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 21 ، ص 131.

الخيال المعلمة المدربة على خوض المعارك وهي الخيل الحسان، وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادي، وأما الحرث وهو الفلاحة وأعمالها فيتمول بها أهل القرى فتكون فتنة كل صنف في النوع الذي يتمول، فأما النساء والبنون ففتنة للجميع، ويشير الله - سبحانه - إلى كل تلك الأصناف بما فيها النساء والبنون فيقول: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي ما يتمتع به فيها ثم يذهب ولا يبقى، وهذا منه - سبحانه - تهديد في الدنيا وترغيب في الآخرة. فهذه الآية تقلل من شأن الدنيا ومتاعها، وتوجه الأنظار إلى ما هو خير وأبقى.

2- وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 77].

"والمعنى متاع الدنيا قليل زائل، ومتاع الآخرة كثير دائم، والكثير إذا كان على شرف الزوال فهو قليل، فكيف القليل الزائل".¹ فمتاع الدنيا قليل سريع الفناء لا يدوم لصاحبه وثواب الآخرة خير من المتاع القليل لمن اتقى ورغب في الثواب الدائم، فإذا كنتم ترغبون في زيادة أجوركم وتحرصون على عدم نقصانها فكيف ترغبون عن ذلك الثواب الكثير وهو ثواب الآخرة وتشتغلون بمتاع الدنيا مع قلته وانقطاعه.²

3- وقوله تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38]. يقول الإمام الرازي: هل يليق بالعاقل ترك الثواب العظيم في الآخرة لأجل المنفعة اليسيرة الحاصلة في الدنيا؟ والدليل على أن متاع الدنيا في الآخرة قليل أن لذات الدنيا خسيسة في أنفسها ومشوبة بالآفات والبلبات، ومنافع الآخرة شريفة عالية خالصة عن كل الآفات ودائمة أبدية، وذلك يوجب القطع بأن متاع الدنيا قليل حقير خسيس.³

فهذه الآية القرآنية تقلل من متاع الدنيا وترغب فيما عند الله وتحذر من الافتتان بملذات الدنيا الزائلة.

4- وقوله تعالى: ﴿وَفَرِّحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: 26].

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 4، ص 40.

² - الشوكاني، فتح القدير، ج 1 ص 488، 489 "بتصرف".

³ - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 16، ص 16.

"فَقُولْهُ تَعَالَى: [وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا] راجع إلى من بسط الله له رزقه، وبَيَّنَّ تعالى أن ذلك لا يوجب الفرح، لأن الحياة العاجلة بالنسبة إلى الآخرة كالحقير القليل بالنسبة إلى ما لا نهاية له"¹. فأولئك الذين فرحوا بالحياة الدنيا ومتاعها الزائل ولم يتطلّعوا إلى الآخرة ونعيمها المقيم لو ابتغوا الآخرة ما حرمهم الله متاع الدنيا².

5- وقوله . تعالى :: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: 16-17].

والمعنى بل تؤثرون الحياة الدنيا بكل ما فيها من شقوة ونصب، [وَالدَّارُ الْآخِرَةُ] أي الجنة، [خَيْرٌ] أي أفضل، [وَأَبْقَى] أي أدوم، وعن ابن مسعود . رضى الله عنه . أنه قرأ هذه الآية فقال: “أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ لأن الدنيا حضرت وعجلت لنا طيباتها وطعامها وشرابها، ولذا تم وبهجتها، والآخرة غُيِّبَتْ عَنَّا فأخذنا العاجل وتركنا الآجل، وروي عن الإمام مالك بن دينار قوله: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى، قال: فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى³.

وبهذا يتضح لكل عاقل أن نعيم الدنيا نعيم زائل، وأن متاعها متاع فان، فلا يجوز لكل ذي لب إلا أن يختار ما عند الله فهو نعيم باق لا موت فيه ولا زوال له وإنَّ ما عند الله خير وأبقى.

¹ - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 19 ، ص 54.

² - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 4 ، ص 2059.

³ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 20 ، ص 26، 27.

المبحث الثاني : فتنة المال والولد

حذّر الله . سبحانه وتعالى . عباده المؤمنين في كثير من آيات القرآن الكريم من فتنة المال والولد، وقد تنوع الأسلوب القرآني في التحذير من هذه الفتنة فتارة عن طريق النهي والنصح، وتارة عن طريق سرد النماذج وضرب الأمثلة بغرض أخذ العبرة والعظة، فالله . عزّ وجلّ . يعلم مواطن الضعف في النفس البشرية ويعلم طبيعتها وكيف أنها فطرت على حب المال والولد، فالتحذير القرآني لا يهدف إلى قتل هذه الفطرة والغريزة أو طمسها بالكلية، بل يريد الموازنة بين ما في أيديهم من مال وما وهبهم الله من ولد وبين ما عند الله من أجر عظيم باق خالد، ذلك لأن المسلم إذا ركن بالكلية إلى المال والولد شغلته عن ذكر الله وحقوقه عليه فعندئذ تكون الخسارة المحققة، لذلك يحذر القرآن من هذه الفتنة ويبين المخاطر الجسام التي تترتب عليها حيث يقول . سبحانه .: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون:9]. قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ] أي لا تشغلکم، [أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ] يعني عن الصلوات الخمس، والمعنى لا تشغلکم أموالکم ولا أولادکم عن ذکر الله كما شغلت المنافقين، [وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ] أي ومن شغله ماله وولده عن ذکر الله، [فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ] أي في تجارتهم حيث آثروا الفاني على الباقي¹. ويقول الزمخشري: "[لا تُلْهِكُمْ] لا تشغلکم، [أَمْوَالُكُمْ] والتصرف فيها، والسعي في تدبير أمرها، والتهالك على طلب النماء فيها بالتجارة والاعتلال وابتغاء النتاج والتلذذ بها، والاستمتاع بمنافعها، [وَلَا أَوْلَادُكُمْ] وسرورکم بهم وشفقتکم عليهم والقيام بمؤنهم، وتسوية ما يصلحهم من معاشهم في حياتکم وبعد مماتکم، وقد عرفتم قدر منفعة الأموال والأولاد، وأنه أهون شيء وأدونه في جنب ما عند الله، [عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ] وإيثاره عليها، [وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ] يريد الشغل بالدنيا عن الدين، [فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ] في تجارتهم حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني"².

فالأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب ويدرك غاية وجوده، ويشعر أن له هدفاً أعلى يليق بالمخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه، وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض، لا

¹ - الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج. 4 ، ص. 300.

² - الزمخشري، الكشاف ، ج. 4 ص 532.

لتلبيه عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذي تلقى منه ما هو به إنسان، ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر ويلهه عن ذكر الله ليتم له هذا الاتصال [فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ] أول ما يخسرونه هو هذه السمة سمة الإنسان ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شيء مهما يملك من مال ومن أولاد وبيّن الله . سبحانه وتعالى . أن الأولاد والأموال قد تكون مصدر فتنة في بعض الحالات حيث يقول . سبحانه :: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:28]. فقد جعل الله الأموال والأولاد فتنة لأنهم سبب الوقوع في الفتنة وهي الإثم أو العذاب، أو محنة من الله ليلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده، فعليكم أن لا تفتنوا أنفسكم بطلبه وألا تصرفوا إليه كل هممكم، وتزهّدوا في الدنيا ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد لدرجة أن تورطوا أنفسكم من أجلها.

ونظراً لأن المال والولد سبب في الوقوع في كثير من الذنوب فقد صارت من هذه الحيشة محنة يختبر الله بها عباده وإن كانوا من حيشة أخرى زينة الحياة الدنيا، فآثروا حق الله على أموالكم وأولادكم ليحصل لكم ما عنده من الأجر المذكور¹.

إنّ هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية بما يعلم خالقها من تركيبها الخفي، وبما يطلع منها على الظاهر والباطن وعلى المنحنيات والدروب والمسالك، وهو . سبحانه . يعلم مواطن الضعف في هذه الكينونة، ويعلم أن الحرص على الأموال وعلى الأولاد من أعظم مواطن الضعف فيها، ومن هنا نبهها إلى حقيقة هبة الأموال والأولاد، لقد وهبها الله للناس ليلوهم بها ويفتنهم فيها، فهي من زينة الحياة الدنيا التي تكون موضع امتحان وابتلاء ليرى الله فيها صنيع العبد وتصرفه أي شكر عليها ويؤدي حق النعمة فيها؟ أم يشتغل بها حتى يغفل عن أداء حق الله فيها؟ فالفتنة لا تكون بالشدة وبالحرمان وحدهما، إنها كذلك تكون بالرخاء وبالعطاء أيضاً ومن الرخاء العطاء هذه الأموال والأولاد، فإذا انتبه القلب إلى موضع الامتحان والاختبار، كان ذلك عوناً له على الحذر واليقظة والاحتياط أن يستغرق وينسى ويخفق في الامتحان والفتنة، والله . سبحانه . هو الذي وهب الأموال والأولاد إنما يلوح للإنسان بما هو خير وأبقى ليستعين المتعالي على فتنة المال والولد بما عند الله من الأجر العظيم فلا يقعد أحد إذن عن تكاليف الأمانة وتضحيات الجهاد، وهذا هو العون والمدد للإنسان الضعيف

¹ - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج. 6، ص. 3580.

الذي يعلم خالقه مواطن الضعف فيه، إنه منهج متكامل في الاعتقاد والتصور والتربية والتوجيه والغرض والتكليف، منهج الله الذي يعلم لأنه هو الذي خلق¹.

وتأكيداً على فتنة المال والولد يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 15]. أي بلاء واختبار وشغل عن الآخرة، وقد يقع الإنسان بسببهم في العظائم ومنع الحق وتناول الحرام وغصب مال الغير ونحو ذلك، [وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ] يعني الجنة، والمعنى لا تباشروا المعاصي بسبب أولادكم ولا تؤثرهم على ما عند الله، من الأجر العظيم، وقال بعضهم: لما ذكر الله العداوة أدخل من للتبعض فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾. [التغابن: 14]. لأنهم كلهم ليسوا بأعداء ولم يذكر من في قوله: [إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ] لأنهم لم يخلوا من الفتنة واشتغال القلب بهم. إِنَّ فِتْنَةَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ ابْتِلَاءٌ وَابْتِحَارٌ قَدْ يَحْمِلُ الْبَعْضُ عَلَى كَسْبِ الْمَحْرَمِ وَمَنْعِ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، فلا تطيعوهم في معصية الله، وعن بعض السلف: العيال سوس الطاعات².

ومما يؤكد على أن الأولاد فتنة؛ ما ورد في السنة عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال: (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل صلى الله عليه وسلم فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال: صدق الله . عز وجل .: [إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ] نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما³.

ويقول الأستاذ سيد قطب: “كلمة فتنة تحتمل معنيين: الأول: أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم فانتهاؤا لهذا وحاذروا وكونوا أبدأً يقظين لتنجحوا في الابتلاء، وتخلصوا وتجردوا لله كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب.

والثاني: أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها في المخالفة والمعصية فاحذروا هذه الفتنة تحرفكم وتبعدكم عن الله وكلا المعنيين قريب من قريب.

ولقد ذم الله . سبحانه . أحوال أناس وهم المنافقون الذين فتنوا بأموالهم وأولادهم فاستغلوها في غير طاعة الله فكانت عذاباً لهم في الحياة الدنيا، وسبباً لنهاية قائمة لهم حيث قال سبحانه ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ

¹ - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 4، ص 1498.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 18، ص 138.

³ - سنن الترمذي - كتاب المناقب - باب مناقب الحسن والحسين - ج 5 ص 658 رقم (3774).

أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿55﴾
التوبة: [55].

والمعنى لا تستحسن ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا، فإن الله - تعالى - إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب بأن عرضه للتغنى والسبي وبلاهم فيه بالآفات والمصائب وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير وهم كارهون له على رغم أنوفهم وأذاقهم أنواع الكلف والمجاشم في جمعه واكتسابه وفي تربية أولادهم، والمراد من كل ذلك استدراجهم بالنعم إلى أن يموتوا وهم كافرون ملتهون بالتمتع عن النظر للعاقبة. يقول الإمام الرازي: هذا الخطاب وإن كان في الظاهر مختصاً بالرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن المراد منه كل المؤمنين، أي لا ينبغي أن تعجبوا بأموال هؤلاء المنافقين والكافرين ولا بأولادهم ولا بسائر نعم الله عليهم، والمقصود من الآية الزجر عن الاتكال إلى الدنيا والمنع من التهالك في حبها والافتخار بها¹.

ويبين القرآن الكريم أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا لكنه في الوقت نفسه يخاطب أصحاب القلوب المؤمنة، والعقول النيرة، أن العمل الصالح الذي فيه مرضاة الله - سبحانه - هو خير من الانشغال بهذه الزينة الفانية فما عند الله خير وأبقى، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46].

ففي هذه الآية اعتراض أريد به الموعظة والعبرة للمؤمنين بأن ما فيه المشركون من النعمة من مال وبنين ما هو إلا زينة الحياة الدنيا التي علمتم أنها إلى زوال، وأن ما أعدده الله للمؤمنين خير عند الله وخير أملاً، وتقدير المال على البنين في الذكر لأنه يَرْعَبُ فيه الصغير والكبير والشاب والشيخ ومن له من الأولاد ما قد كفاه².

ويقول الإمام الرازي: "لما بين - تعالى - أن الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة على الزوال والبقوار والفناء بين - تعالى - أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا والمقصود إدخال هذا الجزء تحت ذلك الكل، فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض فينتج إنتاجاً بديهيّاً أن المال والبنين سريعة الانقضاء والانقراض، ومن المقتضى البديهي أن ما كان كذلك فإنه يقبح بالعقل أن يفتخر به أو يفرح بسببه أو تقيم له في نظره وزناً، فهذا برهان باهر على فساد

¹ - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 6، ص 2590.

² - "التحرير والتنوير" - ج 15 ص 332، 333.

قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأولاد ثم ذكر ما يدل على رجحان أولئك الفقراء على أولئك الكفار من الأغنياء فقال: [وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ . . .] .
وتقرير هذا الدليل أن خيرات الدنيا منقرضة منقضية، وخيرات الآخرة دائمة باقية، والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي، وهذا معلوم بالضرورة لا سيما إذا ثبت أن خيرات الدنيا خسيصة حقيرة وأن خيرات الآخرة عالية رفيعة¹.

ويقول الأستاذ سيد قطب: "المال والبنون زينة الحياة، والإسلام لا ينهى عن المتاع بالزينة في حدود الطيبات ولكنه يعطيها القيمة التي تستحقها الزينة في ميزان الخلود ولا يزيد، إنهما زينة ولكنهما ليسا قيمة، فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يقدروا على أساسهما في الحياة، إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات، وإذا كان أمل الناس عادة يتعلق بالأموال والبنين فإن الباقيات الصالحات خير ثواباً وخيراً أملاً عندما تتعلق بها القلوب، ويناط بها الرجاء، ويرتقب المؤمنون نتائجها وثمارها يوم الجزاء"².

كما ويبين الله . سبحانه وتعالى . أن المال والبنين اللذين قد يغتر بهما الإنسان ويفتن بهما ويؤثرهما على ما عند الله لا تنفع صاحبها شيئاً دون أن يصحبهما قلب سليم وسلوك قويم؛ حيث يقول سبحانه .: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88]. أي خالص من الشرك والشك، فأما الذنوب فلا يسلم منها أحد، قال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو الصحيح وهو قلب المؤمن، لأن قلب الكافر والمنافق مريض وقيل القلب السليم هو الخالي من البدعة المطمئن إلى السنة"³. وهذا المعنى يبين أن المال والبنين لا تنفع صاحبها إذا كان يحمل بين جنبه قلباً مريضاً بالشك أو الشرك أو البدع أو كل هذه الأمور مجتمعة، ويؤكد على هذا المعنى الإمام البيضاوي . رحمه الله . فيقول: "أي لا ينفعان أحداً إلا مخلصاً سليم القلب عن الكفر وميل المعاصي وسائر آفاته، أو لا ينفعان إلا مال من هذا شأنه وبنوه حيث أنفق ماله في سبيل البر، وأرشد بنيه إلى الحق وحثهم على الخير وقصد بهم أن يكونوا عباد الله مطيعين شفعاء له يوم القيامة.

ومن الآيات الدالة على أن الأموال والأولاد لا تغني عن أصحابها شيئاً إذا لقي أصحابها الله على غير هدى ولا تقى قوله تعالى .: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ، قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ

¹ - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 21 ، ص 131، 132.

² - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 4 ، ص 2272.

³ - الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 3 ، ص 327.

الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا
زُفًى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴿35-37﴾ [السبأ:
هذه الآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما مني به قومه من التكذيب
والكفر بما جاء به، والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد والمفاخرة والتكبر بذلك على المؤمنين والاستهانة
بهم من أجله، فبين الله لهم بأن جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي تقرّبكم إلى الله قربة،
فالأموال لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله، والأولاد لا تقرب أحداً إلا من
علمهم الخير وفقهم في الدين ورشحهم للصالح والطاعة¹.

¹ - الزمخشري، الكشاف ، ج. 4 ص 569.

المبحث الثالث : فتنه النساء

بين القرآن الكريم أن النساء مصدر فتنة للرجال، وأن المرأة مشتهاة بالنسبة للرجل وهي غريزة وفطرة فطر الله الناس عليها وهذا يظهر من خلال قوله . تعالى :: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:14] .

قال أهل السنة بأن المزين لكل هذه المشتبهات هو الله . سبحانه .، والشهوات في الآية يعني المشتبهات، لأن الشهوة توقان النفس إلى الشيء المشتبه، وقوله: [مِنَ النِّسَاءِ] تدل على أنه بدأ بذكر النساء لأن الالتذاذ بهن أكثر، والاستئناس بهن أتم، ولأنهن حبايل الشيطان وأقرب إلى الافتتان¹.

وصياغة الفعل للمجهول في قوله: [زُيِّنَ لِلنَّاسِ] تشير إلى أن تركيبهم الفطري قد تضمن هذا الميل فهو محب ومزين، وهو تقرير للواقع من أحد جانبيه، ففي الإنسان هذا الميل إلى هذه الشهوات، وهو جزء من تكوينه الأصيل لا حاجة إلى إنكاره ولا إلى استنكاره في ذاته، فهو ضروري للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو وتطرد، ولكن الواقع يشهد كذلك بأن في فطرة الإنسان جانباً آخر يوازن ذلك الميل ويحرس الإنسان أن يستغرق في ذلك الجانب وحده، هذا الجانب الآخر هو جانب الاستعداد للتسامي، والاستعداد لضبط النفس ووقفها عند الحد السليم من مزاوله هذه الشهوات، هذا الاستعداد الثاني يهذب الاستعداد الأول وينقيه من الشوائب ويجعله في الحدود المأمونة التي لا يطغى فيها جانب اللذة الحسية ونزعاتها، والشهوات التي يتحدث عنها القرآن الكريم ليست شهوات مستقدرة ولا كريهة، والتعبير لا يدعو إلى استقذارها وكرهيتها، إنما يدعو فقط إلى معرفة طبيعتها، وبواعثها ووضعها في مكانها لا تتعداه ولا تطغى على ما هو أكرم من الحياة وأعلى، وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبولها ومحاولة تهذيبها ورفعها لا كبثها وقمعها².

¹ - الحازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج. 1 ، ص. 230.

² - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 1 ، ص. 374.

ويبين الإمام الحافظ ابن كثير . رحمه الله . سبب تقديم النساء والابتداء بهنّ في الآية الكريمة فيقول: "يخبر . تعالى . عمّا زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين فبدأ بالنساء لأنّ الفتنة بهنّ أشد¹ .

ويؤكد النبي صلى الله عليه وسلم على ما جاء في القرآن الكريم مبيناً خطر هذه الفتنة حيث يقول . صلى الله عليه وسلم :: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)² ، وعن أبي سعيد الخدري . رضى الله عنه . عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإنّ أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"³ . ويوضح الإمام النووي . رحمه الله . معنى الحديث فيقول: "قوله صلى الله عليه وسلم اتقوا النساء اجتنبوا الافتتان بالنساء، وتدخل في النساء الزوجات وغيرهنّ، وأكثرهن فتنة الزوجات لدوام فتنتهنّ وابتلاء أكثر الناس بهنّ"⁴ .

ويتحدث علماء المسلمين القدامى عن هذه الفتنة فيقول المباركفوري . رحمه الله :: "العلة في كونه صلى الله عليه وسلم ترك بعده فتنة أضر على الرجال من النساء أن الطباع كثيراً تميل إليهنّ وتقع في الحرام لأجلهنّ، وتسعى للقتال والعداوة بسببهنّ، وأقل ذلك أن ترغبه في الدنيا وأي فساد أضر من هذا"⁵ . وأما القسطلاني . رحمه الله . فقد قال: "تحقيق كون الفتنة بهنّ أشد، أن الرجل يحب الولد لأجل المرأة وكذا يحب الولد الذي أمّه في عصمته ويرجحه على الولد الذي فارق أمّه بطلاق أو وفاة غالباً"⁶ .

ومن مظاهر فتنة النساء للرجال في العصر الحديث هو ما أخبر عنه صلى الله عليه وسلم من مظاهر التبرج والتكشف والفتن من قبل بعض النساء اللاتي سيطرت عليهنّ صيحات الموضة ولهنّ خلف

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 1 ، ص 351.

² - البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1976م ، كتاب النكاح ، ج 9. ص 41 ، حديث رقم (5096).

³ - مسلم ، أبو الحسين بن الحجاج ، الجامع الصحيح ، مطبعة البوق ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1956م ، كتاب الذكر - باب أكثر أهل الجنة الفقراء - ج 4. ص 2098 - رقم (2742).

⁴ - النووي ، الإمام زكريا يحيى بن شرف ، صحيح مسلم بشرح النووي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ، 2004م، ج 17. ص 55.

⁵ - السجستاني، أبو داود سليمان بن شعث، سنن أبي داود، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1978 ج 8 ، ص 64.

⁶ - إرشاد الساري - ج 8 ص 25.

بيوت الأزياء الفاسدة التي أرادت للمرأة المسلمة أن تخرج من حجابها ونقابها وتكون لقمة سهلة المنال وفريسة لوحوش البشر، فعن أبي هريرة . رضى الله عنه . قال: قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم .: (صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا)¹.

فقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم هذا الصنف من النساء بالكاسيات العاريات لأنهن يلبسن الثياب ومع هذا فهن عاريات لأن ثيابهن لا تؤدي وظيفة الستر لرقتها وشفافيتها كأكثر ملابس النساء في هذا العصر². وقد علق النووي . رحمه الله . على الحديث قائلاً: "هذا الحديث من معجزات النبوة فقد وقع ما أخبر به . صلى الله عليه وسلم ."³.

وقد اعتبر الإمام النووي هذا الحديث معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم لظهور النساء الكاسيات العاريات في زمانه اللاتي لبسن بعض الملابس التي لا تتناسب مع عفة المرأة المسلمة وطهارتها، ولا شك أن هذه المعجزة قد تحققت واضحة جليلة في هذا العصر وأظنها أكثر وضوحاً من عصر الإمام النووي وأستند في قولي هذا إلى تفسير الإمام النووي لمعنى (الكاسيات العاريات) حيث يقول: "معنى (الكاسيات العاريات) أي كاسية جسدها ولكنها تشدّ خمارها وتضيّق ثيابها حتى تظهر تفاصيل جسمها فتبرز صدرها وعجيزتها أو تكشف بعض جسدها فتعاقب على ذلك في الآخرة"⁴.

فإذا كان في زمن الإمام النووي قد لبست بعض النساء الضيق من الثياب، وكشف بعضهن جزءاً من جسدهن فماذا نقول نحن في هذا الزمان وقد تجرأت بعض النساء على إظهار أجزاء كثيرة من جسدها أو أغلبه، كالمرأة التي باعت ضميرها واستلقت شبه عارية على شواطئ البحار وأماكن الاستجمام، وكبعض النساء المسلمات اللاتي يلبسن أزياء غربية وملابس يلبسها النساء في بلاد الجور والفسق والكفر والتي تظهر من جسد المرأة أكثر ما تستر، وكل ذلك كان فتنة من النساء للرجال وسبباً من أسباب انتشار الفواحش في المجتمعات الإسلامية.

¹ - مسلم ، الجامع الصحيح ، كتاب اللباس والزينة ، باب الكاسيات العاريات ، ج 3. ص 1680.

² - القرضاوي ، الحلال والحرام في الإسلام ، دار الشروق ، القاهرة ، ص 83.

³ - النووي ، صحيح مسلم بشرح النووي ، ج 17. ص 190.

⁴ - المرجع السابق - ج 17 ص 190، 191.

وإذا كان هذا الصنف من النساء فتنة في لباسهن فهن فتنة في مشيتهن أيضاً كما وصف النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: (مميلات مائلات) حيث يورد الإمام النووي في معناها أربعة أوجه:

1- زائغات عن طاعة الله . تعالى . وما يلزمهن من حفظ الفروج وغيرها، ومميلات يعلمن غيرهنّ مثل فعلهن.

2- مائلات أي متبخرات في مشيتهن، مميلات أكتافهن.

3- مائلات أي يتمشطن المشطة الميلاء وهي مشطة البغايا معروفة لهن، ومميلات يتمشطن غيرهنّ تلك المشطة.

4- مائلات إلى الرجال، مميلات لهم بما يبدن من زينتهن وغيرها¹.

ومن الملاحظ اليوم أن بعض النساء قد خرجن عن الآداب الشرعية في هذا الزمان فأصبحن يلبسن ثياباً شفافاً تصف عوراتهن، ويتمشطن مشطة مغرية فاتنة، فهن مصدر فتنة، والفتنة بهن أشد من الفتنة بغيرهنّ.

نماذج من فتنة النساء في القرآن الكريم:

لعل من أشدّ الفتن التي عرضها القرآن الكريم للنساء هي محاولة امرأة عزيز مصر إيقاع نبي الله يوسف . عليه السلام . في فتنها مستخدمة كل الوسائل المتاحة لها وهي سيادتها لنساء مصر في ذلك الوقت وجمالها وضعف موقف يوسف . عليه السلام . إذ كان عبداً في ذلك الوقت اشتروه من أحد أسواق الرقيق بثمن بخس دراهم معدودة، فكانت امرأة العزيز متيقنة بأن يوسف في ظل هذه الأوضاع وتحت هذه المغريات لا يمكن أن يرفض لها طلباً أو أن يعصي لها أمراً،

¹ - المرجع السابق، ج17، ص191.

المبحث الرابع: فتنة الفقر

ينظر القرآن الكريم إلى الفقر على أنه مشكلة خطيرة وفتنة يترتب عليها نتائج وخيمة لما يترتب عليه من إهدار للكرامة، ونشر للردية، وإشاعة للكراهية والبغضاء بين أبناء المجتمع الواحد، والمتتبع لنصوص القرآن الكريم لا يجد آية تمدح الفقر بل يجد آيات تمدح الغنى، ومن هذه الآيات قوله . تعالى : ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى : 8] "أي وجدك فقيراً لا مال لك فأغنأك"¹.

ويقول النسفي: "[وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى] أي فقيراً، [فَأَغْنَى] أي فأغنأك بمال خديجة أو بمال أفاءه عليك من الغنائم"². ويقول الأستاذ سيد قطب: "لقد كنت فقيراً فأغنى الله نفسك بالقناعة، كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك خديجة رضي الله عنها . عن أن تحس الفقر أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء"³. ولقد طمأن الله قلوب المؤمنين ووعدهم بالغنى حين أوجسوا في أنفسهم خيفة الفقر المتوقع نتيجة لما طالبهم به من عدم تمكين المشركين من قرب المسجد الحرام، إذ كانوا يأتوهم في الموسم فينعشوا لهم اقتصادهم حيث يقول . سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 28] يقول الخازن في تفسير هذه الآية: "[وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً] يعني فقراً وفاقاً، وذلك أن أهل مكة كانت معاشهم من التجارات، وكان المشركون يجلبون إلى مكة الطعام ويتجرون، فلما منعوا من دخول الحرم خاف أهل مكة من الفقر وضيق العيش، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله: [وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً]، وقوله: [فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ] قال عكرمة: فأغناهم الله بأن أنزل المطر مدراراً وكثر خيرهم، وقال مقاتل: أسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة، فكفاهم الله ما كانوا يخافون، وقال الضحاك وقتادة: عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها"⁴.

وقد جعل الله . سبحانه . الغنى من عظيم مثوبته في الدنيا لعباده المتقين حيث يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96] .

¹ - النسفي ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، ج 2. ص 815.

² - النسفي ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، ج 2. ص 815.

³ - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 6 ، ص 3927.

⁴ - الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 2، ص 349.

قوله . تعالى .: [وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ] يقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها من قريت الماء إذا جمعته، وقوله: [آمَنُوا] أي صدقوا، [وَاتَّقُوا] أي الشرك، [لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ] يعني المطر والنبات وهذا في أقوام على الخصوص جرى ذكرهم إذ قد يمتحن الله المؤمنين بضيق العيش ويكون تكفيراً لذنوبهم¹. فالقرآن الكريم يكشف للناس عن السنة ويحذرهم الفتنة، فتنة الاختبار والابتلاء بالضراء والسراء، وبنبه فيهم دواعي الحرص واليقظة واتقاء العاقبة التي لا تتخلف، فمن لم يتيقظ ومن لم يتحرج ومن لم يتق فهو الذي يظلم نفسه ويعرضها لبأس الله الذي لا يرد، ولو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب، واتقوا بدل الاستهتار، لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض مفتوحة بلا حساب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، والتعبير القرآني بعمومه وشموله يلقي ظلال الفيض الغامر الذي لا يتخصص بما يعهده البشر من الأرزاق والأقوات².

كما جعل الله . سبحانه . الاستغفار سبباً من أسباب الغنى وباباً من أبوابه، حيث يقول على لسان نبيه نوح . عليه السلام .: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: 10-12].

قليل لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، وروي سبعين، فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله تعالى الخصب ودفع عنهم ما كانوا فيه، وعن الحسن: أن رجلاً شكا إليه الجذب فقال: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقليل له: أذاك رجال يشكون أبواباً ويسألون أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فقال: ما قلت من عندي شيئاً، إن الله تعالى . يقول في سورة نوح: [فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ . . .] [الآيات³].

إن الاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات ويدل على ذلك أن الكفر والمعاصي سبب للنقم والدمار، فلما كان الكفر سبباً لخراب العالم وجب أن يكون الإيمان سبباً لعمارته، فأكثر الناس مشقة وذنوباً أقلهم استغفاراً، وأكثرهم استغفاراً أقلهم ذنوباً ومشقة كما يقول بعض السلف، فالاستغفار باب واسع من أبواب الخير وسبيل من سبل النعمة والرزق والبركة.

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 7، ص 243.

² - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3، ص 1338.

³ - الزمخشري، الكشاف، ج 4، ص 605، "الجامع لأحكام القرآن" - للقرطبي - ج 18، ص 289، 290.

وإذا كان الغنى يحظى بمدح في مواضع من كتاب الله . تعالى . فإن الفقر لا يحظى بهذا المدح بل نظر القرآن إليه نظرة مغايرة ويظهر لنا ذلك من خلال هذه الآيات القرآنية:

1- قوله . تعالى .: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:168] .

يبين الله . سبحانه . في هذه الآية الكريمة أن الفقر مدخل من مداخل الشيطان ومصدر من مصادر الفتنة كما يقول النسفي في تفسيره: “الشيطان يعدكم في الإنفاق الفقر ويقول لكم إن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا ويغريكم على البخل وعدم النفقة ومنع الصدقات”¹، ويقول الخازن في معنى الآية: “الشيطان يخوفكم بالفقر ويقول للرجل أمسك عليك مالك فإنك إذا تصدقت افتقرت”².

2- وقوله . سبحانه .: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:81-82]

حيث ينفي الله . سبحانه وتعالى . في هذه الآية صفة الفقر عن نفسه، ويتوعد من نسب ذلك إليه بعذاب شديد. “وأكثر الروايات أن هذا القول إنما صدر عن اليهود، فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب مع أبي بكر إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام، وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً فقال أحد اليهود ويدعى فنحاص: إن الله فقير حتى سألنا القرض، فلطمه أبوبكر . رضى الله عنه . على وجهه وقال له: لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك، فشكاه فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد ما قاله فنزلت هذه الآية تصديقاً لأبي بكر . رضى الله عنه .”³.

3- وقوله . تعالى .: ﴿... رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص:24] تبين الآية الكريمة شدة الفقر على النفس الإنسانية لدرجة أنها جعلت نبياً من أولي العزم من الرسل وهو نبي الله موسى . عليه السلام . يتضرع إلى الله . تعالى . شاكياً إليه فاقته، ومعنى الآية أي ربِّ إني إلى فضلك ومَنَّا وكرمك فقير محووج، فمن خلال هذا التعبير القرآني نسمع رفرة هذا القلب والتجاء إلى

¹ - النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، ج 1. ص 150، 151.

² - الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 1، ص 204.

³ - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 9 ، ص 122.

الحمي الأمن والركن الركين والظل الظليل، نسمع المناجاة القربة والهمس الموحى والانعطاف الرقيق والاتصال العميق والاتجاء الخالص لله رب العالمين¹.

والفقر يكون أحياناً فتنة وابتلاء يبتلي الله به عباده ليمحص إيمانهم، ويختبر عقيدتهم ويشبههم على صبرهم ورضاهم بما قسم الله لهم، فليس الغنى في كل الأحوال إكراماً من الله للعبد، وليس الفقر أيضاً إهانة له أو استخفافاً به، بل يكون الغنى ابتلاءً للغني والفقر ابتلاءً للفقير وفي ذلك يقول - سبحانه -: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: 15-16].

ينكر الله - سبحانه وتعالى - في هاتين الآيتين على الإنسان اعتقاده الخاطئ حين يوسع عليه رزقه فيظن ذلك كرامة أو يقدر رزقه فيظن ذلك مهانة، وليس الأمر كذلك فإن الله - تعالى - يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كلا الحالين، فمن كان غنياً فعليه أن يشكر الله على غناه، ومن كان فقيراً فعليه أن يصبر على فقره وأن يرضى برزقه، فالفقر أحياناً يكون نعمة على صاحبه وسبباً من أسباب دخول الجنة حيث يكون مدعاة للؤمن الفقير للصبر على البلاء².

ويؤكد على هذا المعنى ما ورد في قوله - تعالى -: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 155].

فقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي لنختبرنكم يا أمة محمد، والابتلاء لإظهار الطائع من العاصي لا ليعلم شيئاً لم يكن عالماً به فإنه - سبحانه وتعالى - عالم بجميع الأشياء قبل كونها وحدوثها، وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ﴾ معناه بشيء قليل من هذه الأشياء، و[الْخَوْفِ] توقع مكروه يحصل منه ألم في القلب، والجوع يعني القحط وتعذر حصول القوت، و[نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ] يعني بالهلاك والخسران، و[الْأَنْفُسِ] أي ونقص من الأنفس بالموت أو القتل، و[الثَّمَرَاتِ] يعني الجوائح في الثمار، وقيل: قد يكون بالجدب أيضاً وبترك العمل والعمارة في الأشجار، و[وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ] يعني عند نزول البلاء، والمعنى: وبشر يا محمد الصابرين على امتحاني بما امتحنهم به من الشدائد والمكاره³.

¹ - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 5، ص 2686 "بتصرف".

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 1، ص 509 "بتصرف".

³ - الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 1، ص 94.

وإنما قال بشيء ولم يقل بأشياء على الجمع لوجهين: الأول: لئلا يوهم بأشياء من كل واحد والتقدير بشيء من كذا وشيء من كذا، والثاني: معناه بشيء قليل من هذه الأشياء، أي بشيء قليل من الخوف، وبشيء قليل من الجوع وبشيء قليل من النقص في الأموال والأنفس والثمرات، وهذا يدل على عظيم رحمة الله . سبحانه وتعالى . بأمة الإسلام بالمقارنة بالأمم السابقة التي كانت تبتلى بشق أنواع الابتلاءات وألونها¹.

وابتلاء النفس الإنسانية بالفقر والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات تربية لهذه النفس وتعويد لها على الصبر ومواجهة أقدار الله كما أراد الله . سبحانه . ليستحق المؤمن بعد ذلك البشري الإلهية التي بشر الله بها عباده المؤمنين الصابرين وهي الصلوات والرحمة من ربهم ووصفهم بالهداية، وهذه التربية الإيمانية لا بد منها لتكون عوناً للمؤمن وحافزاً له على الصبر والصمود في ميادين الصراع مع الباطل.

يقول الأستاذ سيد قطب: "لابدّ من تربية النفس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، لا بد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة، كي تعزّ على نفوسهم بمقدار ما أدّوا في سبيلها من تكاليف، والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى، وكذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها، إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم: لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيراً مما يتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء ولا صبروا عليه، وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها مقدرين لها مندفعين إليها وعندئذ يجي نصر الله والفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجا، ولا بدّ من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة، وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد، والقيم والموازن والتصورات ما كانت لتصح وتندق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون والران عن القلوب، وأهم من هذا كله أو القاعدة لهذا كله الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها، وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إلى الله وحده لا يجد سنداً إلا سنده، وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات، وتفتح

¹ - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 4 ، ص 167. " بتصرف " .

البصيرة وينجلي الأفق على مدى البصر لا شيء إلا الله، لا قوة إلا قوته، لا حول إلا حوله، لا إرادة إلا إرادته، لا ملجأ إلا إليه، وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح¹. إن الفقر لا يكون عقوبة في كل الأحوال، بل يكون أحياناً فتنة للعبد وابتلاء له، ويكون سبباً للفوز والفلاح في الآخرة لصاحبه عند الصبر عليه والرضا بما قسمه الله له من رزق.

ولكن بعض النفوس التي لم تخالطها بشاشة الإيمان تقابل فتنة الفقر بالتضجر وعدم الرضا والانحراف عن طريق الله المستقيم والزيع والضلال عن خط الهداية الإلهية فتكون هذه الفتنة فتنة له عن دينه، ووبالاً عليه في الدنيا والآخرة، ويترتب على ذلك أخطار وآثار سلبية خطيرة لا تحمد عقباها ومن هذه الآثار والأخطار المترتبة على فتنة الفقر:

1- أن الفقر يشكل خطراً على عقيدة المسلم الفقير خاصة إذا كان هذا الفقير من ضعاف الإيمان، ذلك لأنّ المسلم الذي خالطت بشاشة الإيمان قلبه ينظر إلى فقره . إن كان فقيراً . على أنه ابتلاء بالفقر، خاصة حين يرى من هم أقل منه إيماناً والتزاماً بتعاليم الدين وفرائضه ينعمون ويتمتعون في مال الله ورزقه، ولا يعانون مما يعاني، وقد يؤدي به ذلك إلى الشك في عدالة التوزيع الإلهي خاصة إذا كان الفقير هو الكادح المتعب والغني هو المنعم المترف، وقد يسبب الفقر أحياناً إلى ارتياب الفقير في نظرة الخالق . عزّ وجلّ . إليه، فيظن أن الله قد قدر عليه رزقه بسبب الغضب عليه وعدم الرضا عنه، وأنّ بينه وبين الله . سبحانه . باباً مغلقاً فيسئ بذلك الظنّ بالله الذي تكلف برزق كل دابة تمشي على الأرض، حيث يقول . سبحانه .: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود:6].

يقول الزمخشري: "فإن قلت: كيف قال: [عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا] بلفظ الوجوب وإنما هو تفضل؟ قلت: هو تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم رجع التفضيل واجباً كندور العباد، والمستقر: مكانه من الأرض ومسكنه، والمستودع حيث كان مودعاً قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة، فكل واحد من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها في اللوح يعني ذكرها مكتوب فيه مبين"².

وقد يؤدي الفقر إلى نظرة جبرية يُتخيل معها أن الفقر داء لا انفلات معه وقد حصلت هذه النظرة فعلاً من كفار قريش حين أمرهم الله بالإحسان والنفقة حيث يقول . سبحانه .: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا

1 - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 1 ، ص 145.

2 - الزمخشري، الكشاف ، ج 2. ص 365.

مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿[يس:31]﴾.

وإذا كان كفار قريش ليسوا حجة فيكفي أنهم كفار أصلاً لا يعتد بقولهم إلا أن هذه العبارات قد تجري على ألسنة بعض ملاحدة العصر ممن لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم فيكون لها وقعها في قلوب ضعاف الإيمان، فيشعرون بأنهم وقعوا في داء لا انفلات منه.

يقول الخازن: "قيل: كان العاص بن وائل السهمي إذا سأله المسكين قال له: اذهب إلى ربك فهو أولى مني بك، ويقول: قد منعه الله أفطعمه أنا، ومعنى الآية: أنهم قالوا: لو أراد الله أن يرزقهم لرزقهم، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم، فلا نطعم من لم يطعمه وهذا مما يتمسك به البخلاء، يقولون: لا نعطي من حرمه الله، وهذا الذي يزعمون باطل لأن الله تعالى . أغنى بعض الخلق، وأفقر بعضهم ابتلاء، فمنع الدنيا من الفقير لا بخلاً وأعطى الدنيا الغني لا استحفاً، وأمر الغني بالنفقة لا حاجة إلا ماله، ولكن ليلو الغني بالفقير فيما فرض له من مال الغني"¹.

ولقد كان الزنادقة في مكة يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله . تعالى . بمشيئته فيقولون: لو شاء الله لأغنى فلاناً، ولو شاء لأعزّه، فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولون من تعليق الأمور بمشيئة الله، ومعناه أنطعم المقول فيه هذا القول بينكم، وذلك أنهم كانوا ينكرون بأن الغني والفقير من الله، فهم معطلة لا يؤمنون بالصانع، وعن ابن عباس . رضي الله عنهما . كان بمكة زنادقة فإذا أسروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن، وقيل: كانوا يوهمون أن الله . تعالى . لما كان قادراً على إطعامه ولا يشاء إطعامه فنحن أحق بعدم إطعامهم².

إن الفقر قد يكون فتنة للفقير ضعيف الإيمان لأنه يدفعه إلى الارتياب في عدالة التوزيع الإلهي للرزق بين العباد، ولما كان هذا الشك يشكل خطراً على العقيدة ويؤدي في بعض الأحيان بصاحبه إلى غيابات الكفر وظلمة الانحراف والضلالة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيز بالله من شر الفقر مقترناً بالكفر في سياق واحد، حيث يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر)³.

¹ - الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج. 4 ، ص 9.

² - الزنجشيري، الكشف ، ج. 4، ص 19. " بتصرف " .

³ - ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ص 344.

2- كما ويشكل الفقر خطراً على الأخلاق والسلوك الإنساني لأنه يدفع صاحبه لفعل ما لا ترضاه الفضيلة ويأباه الخلق الكريم، فقد يقتل الأب أبناءه وفلذات كبده إمّا بسبب فقر مدقع واقع يصل بالأب إلى مرحلة لا يستطيع معها توفير أدنى متطلبات الحياة لأبنائه وهي الطعام والشراب، أو بسبب الخوف من الوقوع في الفقر مستقبلاً، ولقد كانت هذه العادة الظالمة المشينة . والتي تجرد الأب من كل معاني الرحمة والأبوة . سائدة في المجتمع الجاهلي قبل بزوغ فجر الإسلام حيث يصور القرآن الكريم أن الفقر كان يفتن بعض الآباء فيدفعهم لقتل أولادهم وذلك بسبب فقر حاصل واقع وفي ذلك يقول . سبحانه .: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام:151].

قوله . تعالى .: [وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ] الإملاق الفقر، أي لا تندوا من المؤودة بناتكم خشية العيلة فإني رازقكم وإياهم، وقد كان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشية الفقر كما هو ظاهر الآية¹. ويقول الشوكاني: "لما ذكر حق الوالدين على الأولاد، ذكر حق الأولاد على الوالدين وهو ألا يقتلوه من أجل إملاق، والإملاق الفقر، فقد كانت الجاهلية تفعل ذلك بالذكور والإناث خشية الإملاق وتفعله بالإناث خاصة خشية العار"². كما كان العرب في الجاهلية يقتلون أولادهم خشية فقر متوقع سيحصل في المستقبل بسبب كثرة الأولاد فجاء القرآن الكريم ليطمئن الآباء أن لا داعي للخوف من الفقر القادم بسبب كثرة العيال فإن رزقهم ورزقكم على الرازق ذي القوة المتين، وفي ذلك يقول سبحانه .: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:31]. أي لا تقتلوه خوفاً من الفقر الآجل، فلا تخافوا أن تفتقروا بسبب رزقهم فرزقهم على الله، فلما كان الفقر حاصلاً وواقعاً في الآية الأولى قدم الآباء على الأبناء في الرزق ليطمئن قلوب الآباء أن رزقهم ورزق أبنائهم على الله، ولما كان متوقعاً في المستقبل بسبب الأولاد حسب ظنهم واعتقادهم قدم الأولاد لبيّن . أن الأولاد في رعاية الله وأن رزقهم عليه وحده ولا يمكن أن يكونوا سبباً للفقر والقلّة لأن المغني والمفقر والمعز والمذل هو الله . سبحانه .³.

وإن ما نسمعه في هذا الزمان من عمليات إجهاض وتحديد نسل وغيرها من الوسائل التي يعمد الآباء والأمهات فيها إلى قتل الأجنة داخل الأرحام وذلك خشية الوقوع في الفقر في المستقبل أو بسبب فقر واقع ما هو إلا عودة إلى الجاهلية الأولى ولكنها في قالب جديد وما الدافع في الغالب

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 7، ص 131.

² - الشوكاني، فتح القدير، ج 2، ص 177.

³ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2، ص 188 " بتصرف ".

لكل ذلك إلا السبب نفسه الذي كان يقتل فيه الأولاد في جاهلية ما قبل الإسلام، وإن كانت طريقة القتل اليوم أخف جرماً وأقل بشاعة إلا أن الدافع للقتل في الجاهليتين دافع واحد وهو الفقر وقد اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم هذا العمل الشنيع وهذه الجريمة القاسية من أعظم الذنوب وذلك في حديث عبدالله بن مسعود (أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت: ثم أي، قال: أن تزاني حليلة جارك)¹.

¹ - البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب ج. 7، ص. 100، حديث رقم (6001)

المبحث الخامس : فتنة الصبر على المصائب الدنيوية

أخبر الله - سبحانه وتعالى - في كتابه عن محبته للصابرين على المصيبة، وبشرهم بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون ويتنافسون، حيث قال سبحانه :: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 155-157]. لقد وصف الله سبحانه الصابرين على المصيبة بأنهم: [الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا. . .] لإفادة أن صبرهم أكمل الصبر، إذ هو صبر مقترن ببصيرة في أمر الله - تعالى - إذ يعلمون عند المصيبة أنهم ملك لله - تعالى - يتصرف فيهم كيف يشاء فلا يجزعون مما يأتيهم، ويعلمون أنهم صائرون إليه فيشيهم على ذلك، وهذا الصنف من الناس يعلمون أن الحياة لا تخلو من الأكدار بغرض الامتحان والاختبار والابتلاء فلا ترعجهم المصائب، ولا تكون لهم حاجباً عن الثبات والصبر في مقام الصبر لأنهم مهتدون وأما الذين لم يهتدوا فهم يجعلون المصائب سبباً في اعتراضهم على الله أو كفرهم به أو قول ما لا يليق أو شكهم في صحة ما هم عليه من الإسلام، يقولون لو كان هذا هو الدين المرضي لله لما لحقنا عذاب ومصيبة، وهذا شأن أهل الضلال، فقد يجعل الله سبب المصيبة عقوبة لعبده في الدنيا على سوء أدب أو نحوه للتخفيف عنه من عذاب الآخرة، وقد تكون لرفع درجات النفس ولها أحوال ودقائق لا يعلمها إلا الله¹.

فلا بد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة لكي تعزّ على نفوسهم، فالعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعزّ عليهم التحلي عنها عند الصدمة الأولى، فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعزّ به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعزّ في نفوس الآخرين، وكلما تألموا في سبيلها وبذلوا من أجلها كانت أعزّ عليهم وكانوا أضنّ بها، كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها، إنهم سيقولون عندئذ في أنفسهم: لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيراً مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء ولا صبروا عليه، وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها مقدرين لها مندفعين إليها، ولا بدّ من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة وتفتح في القلب منافذ ما كان ليعلمها المؤمن في

¹ - ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م، ج 2، ص 57، 58.

نفسه إلا تحت مطارق الشدائد، والقيم والموازن والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون والران عن القلوب، هؤلاء هم الصابرون، هم الذين يلجأون إلى الله وحده حين تهمز الأسناد كلها فلا يجدون سنداً إلا سنده، ولا قوة إلا قوته، ولا حول إلا حوله، ولا إرادة إلا إرادته، ولا ملجأ إلا إليه، هؤلاء هم الذين يسلمون الأمر كله لله عند المصيبة ويقولون: [إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ] تسليم مطلق والتجاء أخير منبثق من الالتقاء وجهاً لوجه بالحقيقة الوحيدة وبالتصور الصحيح، هؤلاء هم الصابرون الذين يبلغهم الله بالبشرى فهم عليهم صلوات من ربهم ورحمة وكذلك هم المهتدون، صلوات من ربهم يرفعهم بها إلى المشاركة في نصيب نبيه الذي يصلي عليه هو وملائكته . سبحانه . وهو مقام كريم . . . ورحمة . . . وشهادة من الله بأنهم هم المهتدون وكل أمر من هذه هائل عظيم¹.

ويتحدث الإمام ابن القيم عن العوامل التي تعين المؤمن على الصبر على البلاء مهما كان شديداً حيث يحصرها بثلاثة عوامل:

- 1- ملاحظة حسن الجزاء: وعلى حسب ملاحظته والوثوق به يخفُّ حمل البلاء، وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة.
- 2- انتظار روح الفرج: يعني راحته ونسيمة ولذته، فإنَّ انتظاره وترقبه يخفف حمل المشقة ولا سيما عند قوة الرجاء.
- 3- تهوين البليّة وذلك بأمرين:

أحدهما: أن يعدّ نعم الله عليه وأياديه عنده، فإذا عجز عن عدّها وأيس من حصرها هان عليه ما هو فيه من البلاء ورآه بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه كقطرة من بحر.

وثانيهما: تذكر سوائف النعم التي أنعم الله بها عليه يهون على المرء أيُّ مصيبة مهما بلغت².
ويبين سبحانه . على لسان لقمان وهو يعظ ولده أن الصبر على المصيبة من عزم الأمور، حيث يقول . سبحانه .: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17]. فقله: [وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ] يجوز أن يكون عاماً في كل ما يصيبه من المحن، وأن يكون خاصاً بما يصيبه فيما أُمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أذى من يبعثهم على الخير وينكر عليهم الشر، [إِنَّ

¹ - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 1، ص 146.

² - "مدارج السالكين" - ج2 ص166، 167.

ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ] مما عزمه الله من الأمور أي قطعه قطع إيجاب وإلزام، ومنه عزمات الملوك وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده: عزمت عليك إلا فعلت كذا، إذا قال ذلك لم يكن للمعزوم عليه بد من فعله ولا مندوحة في تركه، فمعزومات الأمور مقطوعاتها ومفروضاتها¹.

ويقول الخازن: "قوله: [يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ] من الأذى، [إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ] يعني إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى من الأمور الواجبة التي أمر الله بها"². ويقول الإمام الطاهر بن عاشور: "وجه تعقيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بملازمة الصبر على المصاب هو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يجران للقائم بهما معادة من بعض الناس أو أذى من بعض، فإذا لم يصبر على ما يصيبه من جراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوشك أن يتركهما"³.

هذا هو طريق العقيدة المرسوم، توحيد الله وشعور برقابته، وتطلع إلى ما عنده، وثقة في عدله، وخشية من عقابه، ثم انتقال إلى دعوة الناس وإصلاح حالهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والتزود ب زاد العبادة لله والتوجه إليه بالصلاة، ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله من التواء النفوس وعنادها، وانحراف القلوب وإعراضها، ومن الأذى تمتد به الألسنة وتمتد به الأيدي، ومن الابتلاء في المال والابتلاء في النفس [إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ] فعزم الأمور قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم⁴.

وإن أعظم سبيل للمؤمن للصبر على المصيبة وعدم الافتتان بها هو أن يؤمن أن ما أصابنا ما كان ليخطئنا وما أخطأنا ما كان ليصيبنا، وأن كل مصيبة تحدث للعبد إنما تكون بإذن الله قد كتبها الله على العبد في اللوح المحفوظ حيث يقول . سبحانه :: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: 51].

¹ - الزمخشري، الكشاف ، ج 3. ص 213..

² - الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 3، ص 399.

³ - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 21، ص 165.

⁴ - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 5، ص 279.

والمعنى: كل شيء بقضاء وقدر¹. ويقول الإمام الشوكاني: "إن الإنسان إذا علم أن ما قدّره الله كائن، وأنّ كل ما ناله من خير أو شر إنما هو بقدر الله وقضائه هانت عليه المصائب ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفي الحسدة"².

ويقول: سبحانه وتعالى. أيضاً: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۖ﴾. [الحديد: 22]. فهذا الكون وما يقع فيه من أحداث وأطوار منذ نشأته إلى نهايته كائن في علم الله فكل مصيبة من خير أو شر تقع في الأرض كلها وفي أنفس البشر هي في كتاب أزلي من قبل ظهور الأرض وظهور الأنفس، وقيمة هذه الحقيقة في النفس البشرية أن تسكب فيها السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيراً وشرها فلا تجزع جزعاً تطير به شعاعاً وتذهب معه حسرات عند الضراء ولا تفرح فرحاً تفقد الاتزان فيه عند السراء³.

وقوله: [وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ] إشارة إلى المصائب اللاحقة لذوات الناس من الأمراض وقطع الأعضاء والأسر في الحرب وموت الأحباب وموت المرء نفسه إذ سماه الله مصيبة فإن المصائب الخاصة بالنفس أشدّ وقعاً على المصاب من المصائب العامة، وقوله: [إِلَّا فِي كِتَابٍ] وذلك علم الله بها وتقديره لأسباب حصولها ووقت خلقها وترتب آثارها⁴.

وفي نفس المعنى يقول الله: سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن: 11]، فهذه الآية أيضاً تعد سلوى لأصحاب المصائب الدنيوية ولمن قدّر الله لهم الاختبار والابتلاء والتمحيص في الحياة الدنيا، فإذا علم المبتلى والمصاب أنّ ما حدث له ما كان إلا بإذن من الله غمر قلبه الرضا، وصبر واحتسب، وعلم وأيقن أن ما حدث له إنما كان بتقدير من الله وحساب.

يقول الإمام الرازي: "قوله: [إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ] أي بأمر الله، قاله الحسن، وقيل: بتقدير الله وقضائه، وقيل: بإرادة الله. تعالى. ومشيتته، وقال ابن عباس. رضي الله عنهما. بعلمه وقضائه، وقوله: [يَهْدِ قَلْبَهُ] أي عند المصيبة أو عند الموت أو المرض أو الفقر أو القحط، ونحو ذلك فيعلم أنها من الله. تعالى. فيسلم لقضاء الله. تعالى. ويسترجع"⁵.

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 8، ص 149.

² - الشوكاني، فتح القدير، ج 2، ص 369.

³ - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 6، ص 3493.

⁴ - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 27، ص 410.

⁵ - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 21، ص 26، 27.

وإذا كانت هذه صفات المؤمنين الذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان، فإن غير المؤمنين الذين لا يرضون بقدر الله ما تزيدهم المصيبة إلا فتنة وبعداً عن دينهم كما يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: 36].

يقول الخازن: "قوله: [وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ] أي جذب وقلة مطر وقيل خوف وبلاء، [بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ] من السيئات، [إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ] أي ييأسون من رحمة الله وهذا خلاف وصف المؤمن فإنه يشكر ربه عند النعمة ويرجوه عند الشدة"¹.

ويقول الأستاذ سيد قطب: "هذه صورة للنفس التي لا ترتبط بخط ثابت تقيس إليه أمرها في جميع الأحوال، وميزان دقيق لا يضطرب مع التقلبات، والناس هنا مقصود بهم أولئك الذين لا يرتبطون بذلك الخط ولا يزنون بهذا الميزان فهم يفرحون بالرحمة فرح البطر الذي ينسيهم مصدرها وحكمتها فيطربون بها ويستغرقون فيها ولا يشكرون المنعم، ولا يستيقظون إلى ما في النعمة من امتحان وابتلاء، حتى إذا شاءت إرادة الله أن تأخذهم بعملهم فتذيقهم حالة سيئة عموا كذلك عن حكمة الله في الابتلاء بالشدة، وفقدوا كل رجاء في أن يكشف الله عنهم الغمة، وقنطوا من رحمته ويئسوا من فرجه، وذلك شأن القلوب المنقطعة من الله التي لا تدرك سننه ولا تعرف حكمته"².

ومن الآيات القرآنية الدالة على أن المصائب الدنيوية قد تكون سبباً لفتنة أصحابها وانحرافهم قوله . تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّحْنَا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: 48]

أراد بالإنسان هنا الجمع لا الواحد ويبين ذلك قوله: [وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ] والرحمة في الآية هي النعمة من الصحة والغنى والأمن، والسيئة البلاء من المرض والفقر والمخاوف، والمعنى أن هذا الصنف من الناس يذكر البلاء وينسى النعم وييطرها³.

ويقول الإمام الرازي: "نعم الله في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى السعادات المعدة في الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلذلك سمّاها ذوقاً، فبين . تعالى . أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير الذي حصل عليه في الدنيا فإنه يفرح بها، ويعظم غروره بسببها، ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المنى، ووصل إلى أقاصي السعادات، وهذه طريقة من يضعف اعتقاده في

¹ - الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج. 3، ص. 392.

² - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 5 ، ص. 374.

³ - الزمخشري، الكشاف ، ج. 4 ص. 225 .

سعادات الآخرة، وهذه الطريقة مخالفة لطريقة المؤمن الذي لا يعدّ نعم الدنيا إلا كالوصلة إلى نعم الآخرة، ثم بيّن أنه متى أصابتهم سيئة أي شيء يسوءهم في الحال كالمرض والفقر وغيرهما فإنه يظهر منه الكفر وهو معنى قوله: [فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَقُورٌ] والكفور الذي يكون مبالغاً في الكفران¹.
إنّ الناس يتفاوتون في صبرهم على البلاء فمنهم من يستقبل البلاء بالصبر عليه وطلب الأجر من الله والرضا بقضائه وقدره، ومنهم من يجزع وينفذ صبره ويفتتن في دينه للمصيبة تحلّ به غير راض ولا محتسب، لذلك نجد الفيروز آبادي يقسم الصبر إلى خمسة مراتب: “الصابر وهي أعمّها، والمصطبر المكتسب للصبر المبتلى به، والمتصبر متكلف الصبر حامل نفسه عليه، والصبور: العظيم الصبر الذي صبره أشدّ من صبر غيره والصّبّار الشديد الصبر”². وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة . رضي الله عنهما . عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها)³.

¹ - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 23 ، ص 185.

² - بصائر ذوي التمييز - ج3 ص378.

³ - فتح الباري شرح صحيح البخاري - ج10 ص5641، 5642

الفصل الثالث: : أسباب الفتنة كما يصورها القرآن الكريم

نظراً لخطورة الفتنة على الفرد والمجتمع، فقد حذر القرآن منها أيما تحذير، وبين أسبابها بياناً شافياً حتى يأخذ المسلمون حذرهم، فقد بين الله سبحانه أن أهم أسباب الفتنة هو اتباع الشيطان مبيناً العداوة القديمة بين الشيطان وبني آدم منذ ظهور الخليفة، فقد كانت أول فتنة يتعرض لها الإنسان هي فتنة الشيطان لآدم عليه السلام وحواء في الجنة، والتي آلت إلى خروجهما منها وإهباطهما إلى الأرض، فالسياق القرآني يحذر بني آدم من الافتتان مرة أخرى بمغريات الشيطان والانزلاق في وساوسه.

كما ويبين القرآن الكريم أن المعاصي والذنوب سبب كبير ومؤشر خطير لحصول الفتن والشور منبهاً في الوقت نفسه أن الضنك والبلايا والفتن التي تجتاح العالم الإسلامي إنما هي بسبب المعاصي والآثام. ومن الأسباب التي تؤدي إلى الفتنة أيضاً موالاة الكافرين، واستحسان أفعالهم، والارتقاء في أحضانهم، حيث يكشف القرآن الكريم عما تكنه نفوس الذين كفروا مبيناً أنهم لا يبتغون للمؤمنين إلا كل كراهية وضغينة. ومن الأسباب أيضاً اتباع المتشابه من القرآن بغرض تأويله وإثارة الفتن، وذلك بتحريف معاني القرآن بما يتناسب مع معتقداتهم الباطلة وآرائهم الفاسدة.

ويعدُّ الابتلاء والاختبار أيضاً سبباً رئيساً من أسباب الفتنة حيث اقتضت سنة الله سبحانه وتعالى أن يكون أفضل خلقه أكثر الناس فتنة في هذه الحياة الدنيا. ويتحدث القرآن الكريم عن ميادين الفتنة أيضاً مبيناً أن فتنة الناس عامة في الخير والشر سنة من سنن الله بغرض اختبارهم وتمحيصهم، كما ويبين أن المؤمنين والموحدين ميدان من ميادين الفتنة خاصة أصحاب الرسالات والدعوات فكلما كان المرء أصلب إيماناً كان أكثر عرضة للفتنة والابتلاء. كما ويبين القرآن الكريم أن ميادين الفتنة قد تتسع بحيث يصبح بعض الناس فتنة للبعض الآخر، وتضييق أحياناً ليكون الإنسان فتنة لنفسه. والقرآن الكريم يوضح أسباب الفتنة أيما توضيح وكذلك ميادينها عبر كوكبة من آياته قام الباحث بجمعها والرجوع إلى تفسيرها في كتب التفسير القديمة والحديثة.

المبحث الأول : إتباع الشيطان

العداوة بين الشيطان وبني آدم هي عداوة قديمة ظهرت مع ظهور أول مخلوق وهو آدم . عليه السلام ، إذ بدأ الشيطان منذ اللحظات الأولى في التفكير بالكيد بآدم وزوجته بغرض إخراجهما من الجنة وقد نجح في ذلك، حيث تمكن الشيطان من تزيين المعصية لهما إيهابتهما إلى الأرض عقوبة لهما على اتباع الشيطان والانزلاق في طريقه، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ، فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 35-39].

فكانت هذه أول فتنة يتعرض لها الإنسان بسبب اتباع الشيطان، واقتفاء خطواته والانصياع لوساوسه ومغرياته، وكان ينبغي على بني آدم استشعار هذه العداوة وعدم الانجرار وراء فتنة، والاستفادة مما حصل لأبويهم آدم وحواء، وفي ذلك يقول الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: “وتفيد الآية إثارة الحسرة في نفوس بني آدم على ما أصاب آدم من جراء عدم امتثاله لوصاية الله . تعالى .، وموعظة تنبيهه بوجوب الوقوف عند الأمر والنهي والترغيب في السعي إلى ما يعيدهم إلى هذه الجنة التي كانت لأبيهم، وتربية العداوة بينهم وبين الشيطان وجنده إذ كان سبباً في جر هذه المصيبة لأبيهم حتى يكونوا أبدأً ثاراً لأبيهم، معادين للشيطان ووسوسته، مسيئين الظنون بإغرائه، وهذا أصل عظيم في تربية العامة، ولأجله كان قادة الأمم يذكرون لهم سوابق عداوات منافسيهم ومن غلبهم في الحروب ليكون ذلك باعثاً على أخذ الثأر”¹.

لذلك نجد القرآن الكريم يحذر بني آدم من إبليس وأتباعه مبيناً لهم عداوته القديمة لأبيهم آدم . عليه السلام .، وإخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء، ومبيناً في الوقت نفسه أن اتباع الشيطان يقود إلى الفتنة والضلالة حيث يقول سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَائِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِمَّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 27].

¹ - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج. 1، ص. 434.

فمعنى فتون الشيطان في هذه الآية هو حصول آثار وسوسته، أي لا تمكنوا الشيطان من أن يفتنكم، والمعنى النهي عن طاعته وهذا من مبالغة النهي، والمعنى لا تطيعوا الشيطان في فتنه فيفتنكم، ومثل هذا كناية عن النهي عن فعل والنهي عن التعرض لأسبابه، وشبه الفتون الصادر من الشيطان للناس بفتنة آدم وزوجه إذ أقدمهما على الأكل من الشجرة المنهي عنه فأخرجهما من نعيم كانا فيه، تذكيراً للبشر بأعظم فتنة فتن الشيطان بها نوعهم، وشملت كل أحد من النوع إذ حرم من النعيم الذي كان يتحقق لو بقي أبواه في الجنة وتناسلا فيها، وفي ذلك تذكير بأن عداوة البشر للشيطان موروثة، فيكون أبعث لهم على الحذر من كيده¹.

ومع هذه العداوة الأكيدة الظاهرة نجد البعض ينحرف في مهاوي الشيطان ومنزلقاته ويتولون الشيطان وجنوده من دون الله، فيعاقبهم الله على ذلك، ويؤخهم بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:50]، والمعنى أفتتخذونه يا بني آدم وذريته أولياء وهم لكم عدو أي أعداء، فبئس عبادة الشيطان بدلاً من عبادة الله، أو بئس إبليس بدلاً عن الله². فالشيطان الرجيم يريد أن يفتن الإنسان بأي طريق وجدها، وبأي فرصة تسنح له وبأي أسلوب كان، ولهذا جاء في الحديث تسميته بالفتان كما في قوله . صلى الله عليه وسلم .: (المؤمن أخو المؤمن، يسعهما الماء والشجر ويتعاونان على الفتان)³.

ولقد ثبت في الحديث الشريف ما يدل على حرص الشيطان على فتنة بني آدم وإضلالهم، وأنه يفرح لذلك، وهذا ينبه المسلمين جميعاً أن يحذروا من مكره وألاعيبه، يقول رسول الله . صلى الله عليه وسلم .: (إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، أو قال فيلتزمه ويقول: نعم أنت)⁴.

ولقد جاء التحذير القرآني من اتباع الشيطان وسلوك طريقه، وأن عاقبة اتباعه الهلاك والخسران والوبار وإيقاع الإنسان في شر عظيم وضلال كبير، وذلك في آيات كثيرة من كتاب الله منها:

¹ - المرجع السابق، ج. 8، ص. 76، 77.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج. 10، ص. 430.

³ - أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، ج. 3، ص. 451، 452 - رقم (3070).

⁴ - مسلم، الجامع الصحيح، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، ج. 4، ص. 2167 - حديث رقم (2813).

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: 208].

- قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: 21].

- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: 119].

- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ [الحج: 3]

- قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: 19].

- قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: 16]

فكل هذه الآيات وغيرها تبين الحالة التي وصل إليها عبدة الشيطان والمنزلقون في طريقه بسبب طاعتهم له وانقيادهم لمغرياته.

ونظراً لخطورة اتباع الشيطان واعتباره أخطر باب من أبواب الفتنة ومن أوائل الأسباب التي تؤدي بالإنسان في الوقوع في الفتن، فقد تحدّث بعض العلماء عن الطرق والأساليب التي يسلكها الشيطان مع بني الإنسان ليفتنهم ويضلّهم حيث يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله :-

1- إنّ أول مدخل من مداخل الشيطان هو مدخل الكفر بالله وبدينه ولقائه وبصفات كماله، وبما أخبرت رسله عنه، فإنه إن ظفر به بردت نار عداوته واستراح، فإن اقتحم العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية وسلم معه نور الإيمان، طلبه على العقبة، الثانية وهي:

2- عقبة البدعة: إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله . تعالى . رسوله وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله من الأوضاع المحدثّة في الدين فإذا وفق الله العبد لقطع هذه العقبة طلبه الشيطان على العقبة الثالثة وهي:

3- عقبة الكبائر: فإن ظفر به فيها زينها له، وحسّنها في عينه، وسوّف به وفتح له باب الإرجاء، وقال له: الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه المعاصي والأعمال السيئة، ويستدرجه الشيطان حتى يسلّخه من الدين، فينسل منه كما تنسل الشعرة من العجين، فإذا قطع هذه العقبة بأن سلّمه الله منها أو تاب توبة نصوحاً تنجيه منها طلبه على العقبة الرابعة وهي:

- 4- عقبة الصغائر: حيث يوسوس له الشيطان بقوله ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم¹ فيما يزال يهون عليه أمرها حتى يصرَّ عليها، فإن نجا العبد من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ ودوام التوبة والاستغفار وأتبع السيئة الحسنة طلبه على العقبة الخامسة وهي:
- 5- عقبة المباحات: التي لا حرج على فاعلها فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم يطمع فيه في أن يستدرجه إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات، فإذا انتبه العبد من هذه الغفلة طلبه الشيطان على العقبة السادسة وهي:
- 6- عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات فأمره بها، وحسنها في عينه، وبَيَّنَّها له، وأراه ما فيها من الفضل ليشغله عما هو أفضل منها وأعظم كسباً وربحاً، لأنه لما عجز عن تحسيره أصل الثواب طمع في تحسيره كماله وفضله فشغله بالمفضول عن الفاضل، والمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضي له²، ولقد ذكر العلماء مداخل أخرى للفتنة يدخل منها الشيطان على ابن آدم.

¹ - اللمم: صغار الذنوب، انظر القاموس المحيط - مادة لوم - ص 1496.

² - ابن القيم، مدارج السالكين، ج 1، ص 245-248، "الفوائد" - لابن القيم أيضاً - ص 246.

المبحث الثاني: المعاصي

المعاصي والذنوب سبب كبير ومؤشر خطير لحصول الفتن والاضطرابات والشور في الأمم والشعوب، وإن فساد أحوال الأفراد والمجتمعات وحالة الذلة والمهانة التي تعيشها أمة الإسلام في هذا الزمان إنما بسبب ما كسبته أيدي الناس، فهذه الأزمات المتلاحقة وذلك الضنك وتلك البلايا والحن هي وسائل تنبيه وإنذار رجاء أن يراجع المسلمون حساباتهم، ويحاسبوا أنفسهم، ويرجعوا إلى رشدهم وصوابهم، يقول سبحانه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41]. فقله: [ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ] أي بسبب الشرك والمعاصي ظهر قحط المطر وقلة النبات في البراري والبادي والقفار والبحر، قيل المدائن والقرى التي هي على المياه الجارية والعرب تسمى المطر بحرًا تقول أجذب البر وانقطعت مادة البحر، وقيل البر ظهر الأرض والبحر هو المعروف، وقوله: [بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ] أي بسبب شؤم ذنوبهم¹.

ويفسر الإمام الزمخشري [الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ] بالجدب والقحط وقلة الربيع في الزراعات والتجارات، ووقوع الموت في الناس والدواب، وكثرة الحرق والغرق، وإخفاق الصيادين ورجوعهم من غير صيد، ومحق البركات من كل شيء، وقلة المنافع وكثرة المضار، وقوله: [لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] فالمعنى أن الله قد أفسد أسباب دنياهم ومحققها ليزيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة². ويقول الأستاذ سيد قطب في قوله تعالى: [ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ . . .]: "ظهور الفساد هكذا واستعلاؤه لا يتم عبثاً ولا يقع مصادفة، إنما هو تدبير الله وسنته، [لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا] من الشر والفساد حينما يكتون بناره ويتألمون لما يصيبهم منه، [لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] فيعزمون على مقاومة الفساد، ويرجعون إلى الله وإلى العمل الصالح وإلى المنهج القويم"³.

إنَّ جميع أنواع المعاصي والسيئات التي تنزل بسببها الفتن وتحلُّ بها البلايا والحن بيَّنها القرآن الكريم أيما بيان، وهي كثيرة منها:

¹ - الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 3، ص 392-393.

² - الزمخشري، الكشاف ، ج 3، ص 467.

³ - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 5 ، 2773.

1- مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم وعدم توقيره:

ومن ذلك قوله . تعالى :: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]. قال الضحاك عن ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عز وجل . عن ذلك إعظاماً لنبيه صلى الله عليه وسلم قال: فقولوا يا نبي الله، يا رسول الله وهكذا، قال مجاهد وسعيد بن جبير، وقال قتادة: أمر الله أن يهاب نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يعظم وأن يسود، وقال مقاتل: يقول لا تسموه إذا دعوتوه يا محمد ولا تقولوا يا ابن عبد الله ولكن شرفوه فقولوا يا نبي الله يا رسول الله.

وقوله: [فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ] أي فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول صلى الله عليه وسلمباطناً وظاهراً، [أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ] أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة، [أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك¹.

فلا بد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله . صلى الله عليه وسلم .، ولا بد للمري من وقار، ولا بد للقائد من هبة، وفرق بين أن يكون هو متواضعاً هيناً ليناً وأن ينسوا هم أنه مريهم، فيدعوه دعاء بعضهم لبعض، يجب أن تبقى للمري منزلة في نفوس من يريهم، يرتفع بها عليهم في قراءة شعورهم، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير، ثم فليحذر المنافقون الذين يتسللون ويذهبون بدون إذن يلوذ بعضهم ببعض، ويتوارى بعضهم ببعض، فعين الله عليهم، وإن كانت عين الرسول لا تراهم وهو بعيد يصور حركة التخلي والتسسل بحذر من المجلس، وذلك بطريقة يتمثل فيها الجبن عن المواجهة وحقارة الحركة والشعور المصاحب لها في النفوس، فليحذر الذين يخالفون عن أمره، ويتبعون نهجاً غير نهجه، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة، ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضطرب فيها المقاييس وتختل فيها الموازين، ويتكث فيها النظام، فيختلط الحق بالباطل، والطيب بالخبث، وتفسد أمور الجماعة وحياتها، فلا يأمن على نفسه أحد، ولا يقف عند حده أحد وهي فترة شقاء للجميع².

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 3، ص 306.

² - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 4، ص 2535.

وقد فسرت الفتنة بعدة تفسيرات ففيل الكفر، وقيل الضلال، وقيل بلاء في الدنيا، ولا تعارض بين هذه المعاني¹. وقد ورد تفسير الفتنة في هذه الآية عن بعض السلف بتسليط السلطان الجائر². وذلك عقوبة للعباد بسبب تركهم سنة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وقد تحدث الإمام ابن القيم - رحمه الله - حول هذا الأمر مبيناً أن تسلط الظلمة من الحكام يكون غالباً بسبب مخالفة الرعية لسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم حيث يقول: "وتأمل حكمته - تعالى - في أن جعل ملوك العباد وأمرأهم وولاتهم من جنس أعمالهم، بل كأن أعمالهم ظهرت في صور وولاتهم وملوكهم، فإن استقاموا استقام ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن أخذوا ممن يتضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقون وضربت عليهم المكوس، والوظائف وكل ما يستخرجونه من الضعيف، يستخرجه الملوك منهم بالقوة، فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم وليس في الحكمة الإلهية أن يولي على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم"³.

2- النفاق:

إن النفاق من أعظم المعاصي المهلكة للفرد والأمة، وقد أخبرنا الله - سبحانه وتعالى - عن أحوال المنافقين في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد فتنوا أنفسهم وأهلكوها، وذلك بإيقاعها في الشهوات والملذات والمعاصي، وفي الآخرة يكشف الله لهم سوء نياتهم، وحقيقة أخلاقهم، وفساد قلوبهم، في الدنيا وفي ذلك يقول - سبحانه -: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ، يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [التحديد: 13-14].

فهذه الآيات الكريمة تتحدث عن أربعة فصول تعد من أسباب الخسران، وهي فتنة أنفسهم، والترصد بالمؤمنين، والارتياح في صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم -، والاعتزاز بما تسول لهم أنفسهم، وهي أصول الخصال المتفرعة من النفاق وأهمها فتنتهم لأنفسهم وهلاكها وذلك بعدم قرار ضمائرهم على الإسلام، فهم في ريبهم يترددون، فكأن الاضطراب وعدم الاستقرار خلق لهم، فإذا

¹ - " زاد المسير " - لابن الجوزي - ج5 ص401.

² - روح المعاني " - للألوسي - ج18 ص227.

³ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة - ج1 ص153.

خطرت في أنفسهم خواطر خير من إيمان ومحبة للمؤمنين نقضوها بخواطر الكفر والبغضاء، وهذا من صنع أنفسهم، فإسناد الفتن إليهم إسناد حقيقي¹.

وتصور هذه الآيات المنافقين والمنافقات وهم في حيرة وضلال ومهانة وإهمال وهم يتوسلون للمؤمنين أن يقتبسوا من نورهم، ولكن أئى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها في الظلام يفتنون أنفسهم بالأمانى الباطلة، ومغريات الشيطان الذي كان يُطعمهم ويعنيهم.

3- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فالفتن التي تصيب أمة الإسلام ترجع إلى إهمال جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث كان الاهتمام بهذا الجانب في الصدر الأول سبباً من أسباب خيرية هذه الأمة التي وصفها الله بها من فوق سبع سموات حيث قال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 121]. "يقول ابن عباس . رضي الله عنهما . في تفسيره لقوله تعالى: [وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً]. [الأنفال: 25]. أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب"². وقد بين الله . سبحانه وتعالى . أن الفتنة لا تقتصر على الظالمين فحسب، بل تتعداهم إلى الساكنتين عن ظلمهم حيث يقول الإمام الفخر الرازي في معنى الآية: "واحدروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالمين خاصة بل تتعدى إليكم جميعاً وتصل إلى الصالح والطالح"³.

وعن أبي زرارة عدي بن عميرة . رضى الله عنه . قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله . عز وجل . لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرائهم وهم قادرون على أن ينكروه، فإن فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة⁴. وثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا)⁵. وعن عبدالله بن مسعود . رضى الله عنه . قال: قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم .: (لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهاهم علمائهم فلم

¹ - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج. 27، ص. 385، 386.

² - ابن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ج. 6، ص. 217.

³ - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج. 15، ص. 154.

⁴ - أخرجه الإمام أحمد في المسند - ج4 ص192.

⁵ - رواه الحاكم في المستدرک - ج4 ص583، وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

ينتھوا، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله . تعالى . قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داوود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون¹.

4- ترك الجهاد في سبيل الله:

إن اشتغال الناس بشهوات الدنيا وملذاتها وترك جهاد الكافرين من أعظم المعاصي التي توقع في الفتنة، فهذه الأمة يوم حملت الأمانة بصدق، وبلغت الدعوة بعزم وإخلاص، وجاهدت في الله حق جهاده، أكرمها الله وأعزها، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، وفتحت أمامها المعازل والحصون، وكانت لها السيادة في الأرض لأمر يزيد على ثلاثة عشر قرناً من الزمن، فلما تركت الجهاد في سبيل الله، تداعت عليها دول الكفر كما تداعى الأكلة على قصعتها، فتمزقت شرّ التمزق، وأصبحت أمماً بعد أن كانت أمة واحدة، ولقد ثبت في السنة ما يقرر هذا الأمر ويؤكدده حيث يقول رسول الله . صلى الله عليه وسلم .: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم². إِنَّ كُلَّ مَا يَصِيبُ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الزَّمَانِ مِنْ مَصَائِبٍ وَبَلَايَا وَفِتْنٍ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ مَا كَسَبَتْهُ أَيْدِيهِمْ، وَهَذَا تَصْدِيقٌ لِقَوْلِ اللَّهِ . تعالى .: [وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ] [الشورى:30]، وقوله . تعالى .: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:165].

¹ - أبو داود ، سنن أبي داود ، باب الأمر والنهي ، ج.4 ص.121 ، حديث رقم (4336).

² - المرجع السابق، كتاب البيوع ، ج.3 ص.274 - حديث رقم (3462).

المبحث الثالث: مولاة الكافرين

تعد مولاة المؤمنين للكافرين من أعظم أسباب الفتنة التي تحدث عنها القرآن الكريم حيث يقول . سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: 73]. وظاهر الآية يدل على إثبات المولاة بين الكافرين بعضهم ببعض، لكن المعنى المراد هنا هو نهي المسلمين عن مولاة الذين كفروا، وموارثتهم، وإيجاب مباحة لهم، وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا توارث بعضهم بعضاً وقوله: [إِلَّا تَفْعَلُوهُ] أي إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضاً حتى في التوارث تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة، لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك، كان الشرك ظاهراً والفساد زائداً¹.

ويقول الإمام ابن عاشور: "والمراد بالفساد هنا ضد صلاح اجتماع الكلمة، فإن المسلمين إذا لم يظهروا يداً واحدة على أهل الكفر لم تظهر شوكتهم، ولأنه قد يحدث بينهم الاختلاف من جراء اختلافهم في مقدار مواصلتهم للمشركين، ويرمي بعضهم بعضاً بالكفر أو النفاق وذلك يفضي إلى تفرق جماعتهم وهذا فساد كبير"². ويقول الأستاذ سيد قطب: "إن المجتمع الجاهلي لا يتحرك كأفراد، إنما يتحرك ككائن عضوي تندفع أعضاؤه بطبيعة وجوده وتكوينه للدفاع الذاتي عن وجوده وكيانه، فهم بعضهم أولياء بعض، ومن ثم لا يملك الإسلام أن يواجههم إلا في صورة مجتمع آخر له ذات الخصائص ولكن بدرجة أعمق وأمتن وأقوى، فأما إذا لم يواجههم بمجتمع ولاؤه بعضه لبعض فستقع الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلي، لأنهم لا يملكون مواجهة المجتمع الجاهلي المتكافل أفراداً، وتقع الفتنة في الأرض عامة بغلبة الجاهلية على الإسلام بعد وجوده، ويقع الفساد في الأرض بطغيان الجاهلية على الإسلام، وطغيان ألوهية العباد على ألوهية الله، ووقوع الناس عبيداً للعباد مرة أخرى وهو أفسد الفساد، ولا يكون بعد هذا النذير نذير ولا بعد هذا التحذير تحذير، والمسلمون الذين لا

¹ - الزمخشري، الكشاف ، ج 2 ص 232

² - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 88.

يقيمون وجودهم على أساس التجمع العضوي الحركي ذي الولاء الواحد والقيادة الواحدة يتحملون أمام الله فوق ما يتحملون في حياتهم ذاتها تبعة تلك الفتنة في الأرض وتبعة هذا الفساد الكبير¹. وكيف يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء وقد كشف الله . سبحانه وتعالى . لنا عمّا تكنه نفوس الذين كفروا، فهم لا يبتغون للمؤمنين إلا كل كراهية وضغينة، فإذا كان هذا هو حالهم وتلك هي نياتهم وأخلاقهم، فكيف يؤمن المؤمنون لهم ويتخذونهم أولياء فهم أناس لا يؤمن لهم جانب، ولا يجوز أن يتخذوا أولياء وأحباء، يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ، هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾. [آل عمران: 118-120].

قال ابن عباس: كان رجال من المسلمين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصدقة والحلف والجوار، فأنزل الله هذه الآيات، ونهاهم عن مبايعتهم خوف الفتنة عليهم، وقيل كان قوم من المؤمنين يصفون المنافقين ويفشون إليهم الأسرار، ويطلعونهم على الأحوال الخفية، وحجة هذا القول أن الله . سبحانه . قد تحدث عن المنافقين ضمن هذه الآيات، وقيل المراد بهذه جميع أصناف الكفار، ويدل على صحة هذا القول النهي عن اتخاذ بطانة من دون المسلمين وهذا يشمل الكفار عامة، والمعنى لا تتخذوا أولياء ولا أصفياء من غير أهل ملتكم، فهم لا يقصرون ويبدلون كل ما في وسعهم في إلحاق الشر والفساد بكم وما تخفي صدورهم من العداوة والغیظ أكبر وأعظم مما يظهره، وأنتم أيها المسلمون تحبونهم يعني تريدون لهم الإسلام ولا يحبونكم لأنهم يريدون لكم الكفر، وإذا لقوكم قالوا آمنا كيما يمانكم وصدقنا كتصديقكم وهذه صفة المنافقين، وإذا خلا بعضهم ببعض أظهرها العداوة وشدة الغیظ على المؤمنين لما يرون من ائتلافهم واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم، وإن تصبكم أيها المؤمنون حسنة كظهوركم على عدوكم وإصابتكم غنيمة منهم وتتابع الناس في الدخول في دينكم تحزنهم وتغمهم، وإن أصابكم نكبة أو مكروه فرحوا بذلك المكروه².

¹ - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3، ص. 1560.

² - الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 1، ص. 288، 289.

وبعد التعرف على بعض الصفات التي يتصف بها الكافرون وموقفهم السري والعلني من المسلمين، وبعد الاطلاع على حقيقة نياتهم وأخلاقهم فإن أي عاقل لا يمكن له بحال من الأحوال أن يسمح لنفسه بموالاتة الكافرين والارتقاء في أحضانهم ذلك لأن الكافرين لا يبادلون المؤمنين الوفاء والمصافاة وبقدر ما يود المؤمنون لهم الخير، فهم يودون الشر والسوء للمؤمنين وهذا ما تبينه آيات كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ . . . [البقرة: 105]، وقوله: [وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ] . [البقرة: 109] ، وقوله تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ . [البقرة: 120] ، وقوله تعالى محذراً من مكرهم وغدرهم: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ظُهُورَهُمْ يَكُونُوا لَكُمْ رَعْدًا وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنَّ اسْتَحْبَبْتُمْ إِلَهُ الْكُفْرِ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: 23]،

هكذا تنقطع أواصر الدم والنسب إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة، وتبطل ولاية القرابة في الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة في الله، فلهذا الولاية الأولى، وفيها ترتبط البشرية جميعاً، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك، والحبل مقطوع والعروة منقوضة¹.

وإن ما نراه اليوم على أرض الواقع أن بلاد المسلمين قد ارتقت كل واحدة منها في أحضان دولة شرقية أو غربية ضارين بكل هذه التوجيهات الإلهية عرض الحائط، فلا بد من البراءة من كل علاقة تربط المسلمين برباط الولاء مع دولة كافرة، بل إن الكثير من أبناء هذه الأمة ينظر نظرة إعجاب وإكبار وتعظيم ومهابة لأعداء الله، وأصبحوا موضع القدوة والأسوة لضعاف الإيمان، وفي الواقع لا يجوز ولاية المؤمن للكافر بل يجب البراءة منه ناهيك عن الإعجاب والاقتداء به.

يقول ابن القيم . رحمه الله .: “لا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم، والولاية تنافي البراءة فلا تجتمع الولاية والبراءة أبداً، والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً، والولاية صلة فلا تجتمع ولاية الكافر أبداً”¹.

¹ - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3 ، ص 1615.

ونظراً لما يترتب على موالاة الكافرين من مخاطر وفتن عظيمة فقد آثر الباحث أن يبين بعض صور هذه الموالاة من أجل التنبيه إليها وأخذ الحيلة والحذر منها وهي:

1- اتخاذ الكفار أعواناً وأنصاراً وأولياء وقد نهي الله عن ذلك بقوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُخَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 28] وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: 118].

2- مودتهم ومحبتهم حيث نهي الله . سبحانه . عنها بقوله: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: 22].

3- الرضا بكفر الكافرين وعدم تكفيرهم أو الشك في كفرهم أو تصحيح أي مذهب من مذاهبهم الكافرة².

فهذا الفعل صورة من صور موالاة الكافرين لأنه يسرهم ويسعدهم أن يروا من يوافقهم على كفرهم ويحاربهم على مذاهبهم الإلحادية، ولذلك كان من يجب الكافر لأجل كفره كافراً بإجماع الأمة، ولم يخالف في ذلك أحد من علماء الإسلام³.

4- الإيمان بما هم عليه من الكفر أو التحاكم إليهم دون كتاب الله كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: 51].

يروى في سبب نزول هذه الآية أنَّ بعض أحبار اليهود قدموا قريشاً فلما رآهم العرب قال بعضهم: هؤلاء أحبار اليهود وأهل العلم بالكتب فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم فقال اليهود: دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه ومن اتبعه فنزلت، وإنما قال لهم اليهود ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حول المدينة الخندق فكفى الله شرهم⁴.

¹ - أحكام أهل الذمة - ج 1 ص 242.

² - الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، مجموعة التوحيد ، ص 271.

³ - القحطاني ، الشيخ محمد بن سعيد ، الولاء والبراء في الإسلام ، ص 231.

⁴ - ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج 1 ، ص 513.

5- طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون، وقد نهى الله عن طاعة الكافرين لأن طاعتهم ولاء لهم ومفسدة تعود على الطائعين، يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 149].

6- توليتهم أمراً من أمور المسلمين كالإمارة وغيرها، والتولية شقيقة الولاية، وقد حكم الله أن من تولاهم فإنه منهم، والولاية تنافي البراءة فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً¹، وبهذا الإيجاز يجد الباحث أن موالة المسلمين للكافرين سبب من أسباب الفتنة ومصدر من مصادرها، وأن صور الموالة كثيرة ومتعددة يجب على كل مسلم أن يعلمها حتى يحذرها ويتعد عنها.

¹ - القحطاني ، الشيخ محمد بن سعيد ، الولاء والبراء في الإسلام ، ص241.

المبحث الرابع: اتباع المتشابه

المتشابه هو ما كان معناه ملتبساً على الأفهام، ذلك بأن يكون لفظه يشبه لفظ غيره، ومعناه يخالف معناه¹. وقد بيّن الله - سبحانه وتعالى - أن أصحاب القلوب المريضة والذين لم تخلط بشاشة الإيمان قلوبهم لا يتبعون إلا المتشابه من القرآن، وذلك بغرض إثارة الفتنة، وبهدف تأويله بما يتناسب مع معتقداهم ومصالحهم ومبادئهم الفاسدة، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾. [آل عمران: 7]. "فقلوه: [فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ] أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل، [فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ] أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم لأنه دامغ لهم وحجة عليهم ولهذا قال الله - تعالى -: [ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ] أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لا لهم"². واعلم أنه - تعالى - لما بيّن أن الزائعين يتبعون المتشابه، بيّن أن لهم فيه غرضين:

الأول: ابتغاء الفتنة، وقد ذكر المفسرون في تفسير هذه الفتنة وجوهاً:

- 1- إنهم متى أوقعوا تلك المتشابهات في الدين صار بعضهم مخالفاً للبعض في الدين، وذلك يفضي إلى التقاتل والهرج والمرج فذاك هو الفتنة.
- 2- أن التمسك بذلك المتشابه يقرر البدعة والباطل في قلبه فيصير مفتوناً بذلك الباطل عاكفاً عليه لا ينقلع عنه البتة.
- 3- أن الفتنة في الدين هو الضلال عنه، ومعلوم أنه لا فتنة ولا فساد أعظم من الفتنة في الدين والفساد فيه. وأما الغرض الثاني فهو: [ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ] والمراد منه أنهم يطلبون التأويل الذي ليس في كتاب الله عليه دليل ولا بيان³.

¹ - الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 1 ، ص 225.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 1 ، ص 345.

³ - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 7 ، ص 190، 191.

وهنا يختلف الناس حسب استقامة فطرته أو زيغها، في استقبال هذه الآيات وتلك، فأما الذين في قلوبهم زيغ وانحراف وضلال عن سواء الفطرة فيتركون الأصول الواضحة الدقيقة التي تقوم عليها العقيدة والشريعة والمنهاج العملي للحياة ويجرون وراء المتشابه لأنهم يجدون فيه مجالاً لإيقاع الفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة، والاختلافات التي تنشأ عن بلبلة الفكر نتيجة إقحامه فيما لا مجال للفكر في تأويله، وأما الراسخون في العلم الذين بلغ من علمهم أن يعرفوا مجال العقل وطبيعة التفكير البشري فيقولون في طمأنينة وثقة [أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا] يدفعهم إلى هذه الطمأنينة أنه من عند ربهم، فهو إذن حق وصدق، وما يقرره الله صادق بذاته وليس من وظيفة العقل البشري ولا في طوقه أن يبحث عن أسبابه وعلله، كما أنه ليس في طوقه أن يدرك ماهيته وطبيعة العلل الكامنة وراءه¹.

ولقد كان الأئمة من السلف يعاقبون من يسأل عن تفسير المشكل من القرآن، لأن السائل إذا كان ينبغي بسؤاله تخليد البدعة وإثارة الفتنة فهو حقيق بالنكير وأعظم التعزير، وإن لم يكن ذلك مقصداً فقد استحق العتب بما اجترم من الذنب إذ أوجد للمنافقين الملحدون في ذلك الوقت سبيلاً إلى أن يقصدوا ضعفة المسلمين بالتشكيك والتضليل في تحريف القرآن عن مناهج التنزيل وحقائق التأويل، وروي أن رجلاً يقال له صبيغ بن عسل قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن وعن أشياء، فبلغ ذلك عمر . رضى الله عنه . فبعث إليه عمر وقد أعد له عراجين من عراجين النخل، فلما حضر قال له عمر: من أنت؟ قال: أنا عبدالله صبيغ، فقال عمر . رضى الله عنه .: وأنا عبدالله عمر ثم قام إليه فضرب رأسه بعرجون فشجه، ثم تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب ما كنت أجد في رأسي².

وبهذا يظهر لنا المخاطر التي تترتب على اتباع المتشابه من القرآن والفتن التي تنجم عن الإصرار على معرفته وتأويله، ويجب على المسلم أن يؤمن بكل ما نزل من عند الله سواء كان محكماً أو متشابهاً، فما وصلنا من تفسيره وتأويله أخذنا، وما تشابه علينا تركنا، ونحن مؤمنون ومقرون أن كلاً من عند ربنا.

¹ - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 1، ص 269، 270.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 4، ص 18، 19.

المبحث الخامس: ميادين الفتنة كما يصورها القرآن الكريم

يتنوع أسلوب القرآن الكريم عند الحديث عن ميادين الفتنة بين طمأنة المؤمنين والموحدين، وتحذير أصحاب القلوب التي لم تخاطلها بشاشة الإيمان، حيث يبين الله سبحانه وتعالى . أن أوسع ميدان للفتنة هم الناس عامة إذ اقتضت حكمته . سبحانه . أن يتلي الناس مؤمنهم وكافرهم بالخير والشر على حد سواء وذلك بغرض التمهيد والإخبار، ودائرة الفتنة قد تتسع ليصبح الناس بعضهم فتنة لبعض وقد يضيق المرء فتنة لنفسه .

إن من سنن الله في خلقه ابتلاؤهم وتعريضهم للفتنة حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين، فالابتلاء سنة ربانية جارية، ذلك لأن طبيعة الحياة الدنيا وطبيعة البشر فيها تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، أو شدائد تحل به، فقد يخفق له عمل، أو يخيب له أمل، أو يموت له حبيب، أو يمرض له بدن، أو يفقد منه مال، فالله تعالى قد خلق الخلق، وخلق السموات والأرض، وخلق الموت والحياة، وزين الأرض بما عليها من أجل ابتلاء عباده وامتحانهم ليميز الله الخبيث من الطيب والمؤمن من الكافر، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:7] . فقله سبحانه وتعالى :: [لِيَبْلُوَكُمْ] يعني لختبركم وهو أعلم بكم منكم، [أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا] . يعني بطاعة الله، وأورع عن محارم الله¹.

فالله . سبحانه . خلق الأرض لحكمة بالغة، وهي أن يجعلها مساكن لعباده وينعم عليهم فيها بفنون النعم، ويكلفهم الطاعات واجتناب المعاصي، فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر وعصى عاقبه، ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال لبلوكم، يريد: فيفعل بكم ما يفعل المبتلي لأحوالكم كيف يفعلون، وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، والذين هم أحسن عملاً هم المتقون، وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عباده، وقد خصهم الله بالذكر تشريفاً لهم، وتنبههاً على مكائدهم منه، وليكون ذلك لطفاً للسامعين، وترغيباً في حيازة فضلهم².

¹ - الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 2 ، ص 473.

² - الزمخشري، الكشاف ، ج 2 ص 366.

ومن الآيات القرآنية التي تتحدث عن فتنة الناس عامة قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7]. "فقد أخبرنا . تعالى . أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة هائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار"¹.

والذي يبدو أن هذه الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم على إعراض المشركين بأن الله أمهلهم وأعطاهم زينة الدنيا لعلهم يشكرونها، وأنهم بطروا النعمة، ذلك لأن هذه الزينة توقظ العقول إلى النظر في وجود منشئها، وتبلي العباد في مقدار الشكر لخالقها وجاعلها فمن موقف بحق الشكر، ومقصر فيه وجاحد كافر بنعمة هذا المنعم، ناسب إياها إلى غير موجدتها، ومن لوازمها أيضاً أنها تثير الشهوات لاقتطافها وتناولها فتستثار من ذلك مختلف الكيفيات في تناولها، وتعارض الشهوات في الاستيثار بها، مما يفضي إلى تغالب الناس بعضهم بعضاً واعتداء بعضهم على بعض.

ومعنى الآية لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها، فإنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها، فمنهم من يتدبر ويؤمن ومنهم من يكفر، فلا يعظم عليك كفرهم فإنما نجازيهم فالدنيا وزينتها دار ابتلاء وفتنة ينجو من ينجو ويهلك من يهلك كل حسب عمله، وفي هذا المعنى يقول النبي . صلى الله عليه وسلم: (إن الدنيا خضرة حلوة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون)²، وقوله . صلى الله عليه وسلم: (إن أخوف ما أخوف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا، قال وما زهرة الدنيا؟ قال: بركات الأرض)³.

فهذه الأحاديث النبوية تبين أن الدنيا مستطابة في ذوقها معجبة في منظرها فابتلى الله بها عباده لينظر أيهم أحسن عملاً، فالمكثر من الدنيا لا يقنع بما يحصل له منها بل همه جمعها وذلك لعدم الفهم من الله ورسوله فإن الفتنة معها حاصلة، وعدم السلامة غالبية، فقد أفلح من أحسن العمل وأخذ من الدنيا بحق وأنفق بحق، وقنع بما آتاه الله من فضله⁴.

ولقد اقتضت سنة الله . تعالى . في خلقه أن يتليهم جميعاً بالخير والشر، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، بالغنى والفقر، والحلال والحرام، بالطاعة والمعصية، وبالهدى والضلالة، ويدلل على ذلك قوله

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج. 3، ص. 72.

² - مسلم، الجامع الصحيح، كتاب الذكر والدعاء، ج. 4، ص. 2098.

³ المرجع السابق، كتاب الزكاة - باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، ج. 2، ص. 728.

⁴ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج. 10، ص. 362.

تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:35]. "أي نخبركم بالشدة والرخاء والحلال والحرام فننظر كيف شكركم وصبركم"¹.

إن الابتلاء بالخير أشدُّ وطأة وإن خيّل للناس أنه دون الابتلاء بالشر، فالكثير من الناس يصمدون أمام الابتلاء بالشر، ولكنَّ القلة القليلة هي التي تصمد أمام الابتلاء بالخير، كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة، وكثيرون يصبرون على الفقر والحرمان، فلا تنهوا نفوسهم ولا تذلل، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء وما يغروا به من متاع، وما يثار أمامهم من شهوات وأطماع.

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم، ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الرغائب والمناصب والمتاع والثراء، كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الراحة والمرح، والبقية ينحنون أمام ذلك وتذلُّ به أعناقهم، وتسترخي أعصابهم، وتفتر همهم، إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء، ويستحث المقاومة، ويجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيفقد الأعصاب القدرة على اليقظة والمقاومة، لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء، فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر، والصلة بالله والاعتصام بحبله في الحالين هما وحدهما الضمان والنجاة².

ومن الآيات القرآنية الدالة على أن فتنة الناس جميعاً وابتلاءهم سنة من سنن الله؛ قوله تعالى: ﴿وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 68]. [وَبَلَّوْنَاهُمْ] يعني جميعاً الصالح وغيره، وهي بلوى اختبار وامتحان، [بِالْحَسَنَاتِ] يعني الخصب والعافية، [وَالسَّيِّئَاتِ] يعني الجذب والشدة، [لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] يعني لكي يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا إليه، فكل واحدة من الحسنات والسيئات إذا فسرت بالنعم والشدة تدعو إلى طاعة الله . تعالى ، أما النعمة فيزداد عليها شكراً فيرغب في الطاعة، وأما الشدة فيخاف سوء عاقبتها فيهرب منها³.

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 11، ص 306.

² - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 4، ص 2378، 2379 " بتصرف " .

³ - الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 2، ص 264.

ويقول الإمام الفخر الرازي: أما قوله: [وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ] أي عاملناهم معاملة المبتلي المختبر بالحسنات وهي النعم والخصب والعافية، والسيئات هي الجذب والشدائد¹.
ويقول الأستاذ سيد قطب في معرض تفسيره لهذه الآية: "والمتابعة بالابتلاء رحمة من الله بالعباد، وتذكير دائم لهم، ووقاية من النسيان المؤدي إلى الاغترار والبوار"².

وقد بين القرآن الكريم أن الابتلاء بالخير والشر لا يقتصر على الأفراد بل يتعدى ذلك إلى الأمم، فمن الآيات القرآنية الدالة على ابتلاء الله . سبحانه وتعالى . لبعض الأمم بالخير والشر قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَكَلَّمَا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ، فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام _42-45].

فهذه الآيات الكريمة تعد تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم حيث يبين الله له فيها أنه قد أرسل من قبله رسلاً إلى أقوام بلغوا في القسوة إلى أن أخذوا بالبأساء والضراء وهي الشدة في النفس والمال فغلظت قلوبهم، وأقاموا على تكذيبهم لرسولهم وكفرهم بهم، ولما تركوا ما وعظوا به أبدلهم الله مكان البأساء الرخاء وسعة الرزق ومكان الضراء الصحة والسلامة في الأبدان والأجسام، وذلك استدراجاً من الله لهم وظنوا بذلك أن ما كان عليهم من شدة لم يكن انتقاماً من الله فاطمأنوا للراحة والنعيم ولم يخطر ببالهم العذاب، فأخذهم الله بنقمته وعذابه وهم في حال الرخاء والسلامة ليكون أشد لتحسّرهم على ما فاتهم، واستئصلوا بالعذاب بحيث لم تبق منهم باقية³.

ويقول الأستاذ سيد قطب: "هذه الأمم التي يقص الله . سبحانه . من أنبيائها على رسوله صلى الله عليه وسلم لم تفد من الشدة شيئاً، ولم ترجع عما زين لها الشيطان من الإعراض والعناد، فالقلب الذي لا تردّه الشدة إلى الله قلب تحجر فلم تعد فيه نداوة تعصرها شدة، ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس، وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه فلم يعد يستشعر هذه الوحزة الموقظة التي تنبه القلوب الحية للتلقي والاستجابة، والشدة ابتلاء من الله للعبد، فمن كان حياً أيقظته، وفتحت مغاليق قلبه، وردّته إلى ربه، ومن كان ميت القلب لم تفده الفتنة شيئاً وكانت عليه شقوة وموطئة للعذاب، وهذه الأمم التي تتحدث الآيات عنها أمم قد فتح الله عليها الأرزاق والخيرات والمتاع

¹ - الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 15 ، ص 46.

² - قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج 3 ، ص 1386.

³ - الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 2 ، ص 112، 113.

والسلطان كالسيول بلا حواجز ولا قيود، فغمرتهم النعم، وانحصرت اهتماماتهم في لذائد المتاع ففسدت قلوبهم وأخلاقهم وماتت ضمائرهم حتى جاء موعد السنة، وحق عليهم العذاب من الله، لقد أجذب الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط كما أغرق الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم بهذه السنة، ولقد كان لهذه الأمم من الحضارة والتمكين في الأرض وكان لها من الرخاء والمتاع ما لا يقل عما تتمتع به اليوم أمم مستغرقة في السلطان والرخاء والمتاع، مخدوعة بما هي فيه، خادعة لغيرها ممن لا يعرفون سنة الله في الشدة والرخاء، هذه الأمم لا تدرك أن هناك سنة، ولا تشعر أن كل ما يشعر به أبناؤها من خيرات ونعيم إنما هو استدراج لهم قبل عذاب وهلاك لا يعلم وقته ولا كيفيته إلا الله رب العالمين¹.

ومن الآيات القرآنية الدالة على أن ابتلاء الأمم عامة هي سنة من سنن الله قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ، ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: 94-95]. والمعنى أن الله - سبحانه وتعالى - قد اقتضت حكمته أن يتتلي الأمم والأقوام بالبؤس والفقر والمرض وذلك بسبب استكبارهم على أنبيائهم والهدف من هذه الابتلاءات ليدلوا لربهم ولينصاعوا لنداءات رسلهم ويخطوا أردية الكبر والخطيئة عن أنفسهم، ثم تشاء حكمة الله أن ينقلب هذا الضيق وهذا الكدر إلى نمو في أموالهم وأولادهم وخيراتهم لدرجة يشعرون فيها بالبطر ورغد العيش حتى يقولوا هذه عادة الدهر يتعاقب على الناس السراء والضراء وقد مس آبائنا نحو ذلك، فيصيح الناس من غير أحاسيس ولا ضمائر، لا تنفعهم موعظة ولا تؤثر فيهم نصيحة، إلى أن يأخذهم الله بعذاب أشدّ الأخذ وأفظعه من غير شعور منهم².

وتبين هذه الآيات أن هؤلاء الأقوام لم يعتبروا مما حدث لهم ولآبائهم من قبلهم واعتبروا ذلك عادة جارية في السلف والخلف ولم يكن عقاباً على سوء أعمالهم وعصيانهم وفي ذلك يقول الإمام الشوكاني: قوله: [وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ] أي قالوا هذه المقالة عند أن كانوا في الحسنة بعد السيئة، أي أن هذا الذي مسنا من البأساء والضراء، ثم من الرخاء والخصب، من بعد هو أمر وقع لآبائنا قبلنا مثله، فمسهم من البأساء والضراء ما مسنا ومن النعمة والخير ما نلناه، ومعناه أن

¹ - قطب، سيد، في ظلال القرآن ج 2 ص 1090.

² - الزخشري، الكشف، ج 2، ص 128 "بتصرف".

هذه العادة الجارية في السلف والخلف، وأن ذلك ليس من الله - سبحانه - ابتلاءً لهم واختباراً لما عندهم وفي هذا من شدة عنادهم وقوة تمردهم وعتوهم ما لا يخفى، ولهذا عاجلهم الله بالعقوبة ولم يمهلهم¹.

إنَّ فتنة الناس عامة بالحسنة والسيئة، والخير والشر هي سنة من سنن الله في السابقين واللاحقين، وفي الأولين والآخرين، بهدف تمحيصهم واختبارهم وابتلاءهم.

مسئولية المؤمنين في الفتن:

ذكرت أحد عشر موقفاً يلتزمها المسلم أوقات الأزمات وزمان الفتن، وهي مجملة: الثبات وتثبيت العلماء وترسيخ الإيمان وتوضيح الدين واستشعار الأزمة واستنهاض الهمم وتجميع الصفوف وتفعيل الأمة والاحتساب وإشاعة الوعي والدعوة إلى الله.

أولاً: الثبات والتثبيت

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: 45] فالأزمات عواصف تهز الأمة ولا بد للأمة من تثبيت، والقلوب الضعيفة عرضة للمد والجزر ولجذب الشياطين.

وذكر المؤلف قصة النبي صلى الله عليه وسلم مع صاحبه في الغار "أبي بكر الصديق" وثباته على المحنة وشدة البلاء في قوله صلى الله عليه وسلم: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما" وقوله: "لا تحزن إن الله معنا" وذكر كذلك قصة ثبات المسلمين بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم اليرموك حين ثبتوا. فثبتهم الله.

ثانياً: وتثبيت العلماء

والعلماء بشر تعصف بهم الفتن كما تعصف بالناس، ويرتفع الإيمان وينخفض وتشتد العزيمة وترتخي ويميل ويثبت، فكن مع العلماء، وإذا كانت كلمة العلماء تعني شيئاً وقت الرخاء فهي أعظم وقت الأزمة، وذكر المؤلف قصة ذلك الأعرابي الذي ثبت الإمام أحمد زمن المحنة فقال له: يا أحمد إن يقتلك الحق مت شهيداً وإن عشت عشت حميداً ففوّ قلبك. فلم تكن هناك كلمة أقوى منها في قلب الإمام أحمد.²

ثالثاً: ترسيخ الإيمان

¹ - الشوكاني، فتح القدير، ج 2، ص 227.

² قطب، سيد، في ظلال القرآن ج 2، ص 1490.

علينا أن نحرص على بث الإيمان في قلوبنا وقلوب الآخرين عند الأزمة لأمر منها.

أ- في الأزمة تقبل القلوب على خالقها، وعلى الدعاة أن يضحوا في القلوب معاني الإيمان والتوكل والرغبة والرغبة والإنابة والتوبة..

ب- أن الأزمة لا تخلو من فتنة وظلمة وجفاف وتيه، وفي الإيمان نور وغيث وهداية، ونقل المؤلف كلام ابن حجر رحمه الله في استحباب الإسراع إلى الصلاة عند خشية الشر والفزع إليها عند الفتن، وهذا ما أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم وفعله وأكد عليه بقوله: "العبادة في الهرج كهجرة إلى" رواه مسلم.¹

ت- أن الإيمان أمان، فالله تبارك وتعالى يدافع عن الذين آمنوا، فبقدر الإيمان تكون المدافعة وبقدر الإحسان تكون المعية وبقدر العبادة تكون الكفاية.

رابعاً: توضيح الدين

في الأزمتين يكتر السؤل والقيل والقال ويُفجر الموقف الواحد ألف سؤل وسؤل، وتلتفت الأمة إلى العلماء ليسمعوا الكلمة، والكلمة هنا غالية، قد تكلف الإنسان رأسه أو وظيفته، وحينئذ فلا بد من قيام لله بتوضيح الدين خاصة إذا مست الأمة في عقيدتها وشوش التوحيد وهمشت الثوابت ونطق الرويضة، وقد تكون المسألة بغاية الوضوح وقت الرخاء، فإذا وقعت الواقعة فكأنما غشيتها غمامة ! ولا يكفي مجرد التنظير لهذه المسائل، بل يجب تنزيل هذه الأحكام الشرعية على ما يلائمها من الواقع بكل رسوخ وتحقيق كما فعل علماؤنا الأفاضل.

خامساً: استشعار الأزمة

تمر الأزمة بالأمة، فلا يبالي الرجل بما كان وما يكون، لم يتغير جدولته، ولم يعد نفسه، ولم يضع بصمته في صفحة الأزمة، ولقد عرض للأمة نازلة توجب الاشتغال بما هو أعظم من نوافل التحديث وأعظم من ذلك أن ترى ذا العلم، وذا الدعوة يرى الأزمة تركض إليه وإلى قومه ولم يحرك ساكناً ليس لغفلة أو جهالة أو لعجز، فيُعذر، بل تعامياً وتماوتاً، ثم ذكر المؤلف كلاماً جميلاً طويلاً لابن القيم .يحسن الرجوع إليه.

¹ مسلم ، أبو الحسين بن الحجاج ، الجامع الصحيح ، مطبعة البولاق ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1956م ، كتاب الذكر - باب أكثر أهل الجنة الفقراء - ج 4 ص 3098 - رقم (2745).

سادساً: استنهاض الهمم

على الأمة أن تستنهض هممها وأن تشكلها بل تفجرها تفجيراً؛ لأن السيوف والقنابل قبل أن تقصف الرؤوس تقصف الهمم، واستنهاض الهمم بالآي والحديث وبالخطبة وبالقصّة والشعر وبالموقف الشجاع، ثم ذكر المؤلف شواهد على ذلك من التاريخ كما فعل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في مؤتة، شجع الناس وأيقظ هممهم وذكرهم أنه إما الشهادة أو النصر فقال الناس والله صدق ابن رواحة، وذكر المؤلف أيضاً أحداث معركة عين جالوت وكيف واجه المظفر قطز رحمه الله التتار وشجع الناس وسما بهمهم حتى هزموا الأعداء شر هزيمة¹.

سابعاً: تجميع الصفوف

نحتاج إلى رص الصفوف والقلوب والجهود، ونحتاج إلى نشر أدب الخلاف وفقه الأخوة مع قاموس نظيف للألفاظ، ونحتاج إلى النصح والتصحيح وبيان الحق والصبر على ذلك، فالمقصود الاجتماع على الحق، والله يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103] وأول ما نحتاج إلى الالتفاف حوله ورص الصف معه العلماء العاملون، والمجاهدون المؤمنون، والدعاة الصادقون، نحتاج إلى ترشيد الجهود، إلى التسامي عن المعارك الهامشية حول اسم أو رمز أو المجادلة عن حظ النفس باسم الدفاع عن الدين أو الأنانية الفكرية الضيقة في "أنا" الفردية أو "نحن" الحزبية، كذلك نحن بحاجة إلى التسامي عن توزيع التهم، فلا نشق الصف بتعير الآخر بشق الصف.. إلى آخر ما ذكر المؤلف تحت هذا الموقف المهم والمطلب الأهم.

ثامناً: تفعيل الأمة.. كل الأمة

كل الأمة، الصغير والكبير، والرجل والأنثى، الغني والفقير، وما بينهما، الصحيح والمريض، والأعرج والمشلول، حتى البر والفاجر، وآخرين خلطوا، والجماعات الإسلامية بكل الأسماء وفي كل الاتجاهات.

تريد مهذباً لا عيب فيه .

وهل عود يفوح بلا دخان العمل للأمة واجب الجميع؛ لأنها أزمة الجميع، ولأننا نحتاج كل الطاقات وهي أوسع من فئة أو أفراد صالحين، نحتاج إلى إيقاظ الأمة، نحتاج إلى تجييش الأمة، نحتاج إلى التغاضي شيئاً ما وتأجيل الخلافات والخصومات الداخلية وذكر المؤلف دلائل وشواهد تاريخية منها

¹ الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 15 ، ص 456.

أن جيش سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه خرج إلى القادسية جهاداً ودفاعاً للباطل وفي الجيش أبو محجن الثقفي رضي الله عنه شرب الخمر و جلد الحد ولكنه يحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.
تاسعاً: الاحتساب

وكما أن الخفافيش العلمانية تخرج في الليل وتضغط وتستنفر، فلا بد للمرابطين الساهرين على حصون الأمة أن يصطادوا الخفافيش، أن يطاردوا اللصوص، وأن يفعلوا شيئاً، وذكر المؤلف من صور الاحتساب.

الاحتساب على المرأة وحياطتها وصيانتها وحراسة فضيلتها-

الاحتساب على منع الظلم، وهذا من أعظم الأعمال المتوجبة على أهل العلم، خاصة إذا ماتت - الأمانة وفرخت الأنانية وعاش الناس في طبقة بشعة، يفتقر فيها الفقير ويفحش فيها الغني وتمتص دماء الناس هنا وهنا... إلى آخر ما ذكر المؤلف عند هذه النقطة.

الاحتساب على رعاية الناس وحفظ أمنهم وتدير معيشتهم، كل بحسب موقعه وقدرته، في أهله - أو قرابته، في مسجده أو حيّه أو بلده، خاصة إذا اشتدت الأزمة وارتخت القبضة التي تنظم الأمر

عاشراً: إشاعة الوعي

إن كانت الأزمة ضربة، فلا بد أن نستيقظ، لقد نامت الأمة نومة شتوية طويلة عن سنن الله وعادة الحياة وكيد الأعداء، نومة جلبها الخمول وحب الدنيا، نعم الوعي ثقيل أحياناً، شعور مؤلم أن تشعر بأن الحياة لا تصفو، أن تشعر بقسوتها، أن تشعر بمخططات الأعداء، بل وتنفيذهم، ليس هذا فقط بل وأن عليك أمام كل هذا واجبات وحركة وثمر وأنه لا بد أن تتعلم وتخطط وتنفذ، ومن صور الوعي التي تحدث عنها المؤلف.

أن تشعر ببعذك عن الله وحاجتك إليه وفقرك إليه وتقصيرك في حقه وحق دينه وحق عبادته-

الوعي بالمنافقين، الخفافيش البشرية التي تكمن في نهار الرخاء وتخرج في ليالي الأزمة، وما وقع من - المنافقين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شاهد على ذلك..

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 11، ص 606.

الوعي بعداوة الكفار، الكفار الذين لن يرضيهم شبر الأرض ولا برميل النفط ولا الكلمة والبسمة، -
مِلَّتُهُمْ﴿﴾ [البقرة:120]

الوعي بسنن الله في المدافعة-:﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هَدَمْتَ صَوَامِعَ وَبِيَعٍ وَصَلَوَاتٍ
وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: 40].

الوعي بأنفسنا، بمواضع قوتنا وضعفنا، بمشكلاتنا، الأحداث محك تجربة لمناهجنا، لعلاقتنا، لصبرنا، -
لتفكيرنا، وأهم من ذلك كله لإيماننا.¹

الوعي بمعنى الصبر وحقيقته، وبسبيل النصر وطريقته، وبأن الثبات في سبيل الله نصر، والوعي بأن -
الله يبتلي المؤمنين ويزلزلهم حتى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه متى نصر الله؟
الحادي عشر: إلى الله

وأخيراً.. إلى الله، وما جعلت هذا الموقف أخيراً إلا لتذكره فلا تنساه، ولتحفظه حفظاً وتحفزه في
ذاكرتك، وتكتبه في يدك، وتجعله في خاتمك. إلى الله، فالخير بيديه، والشكوى إليه، والأمر منه وإليه،
إلى الله بالدعوات واللهفات والاستغاثات، بقنوت وصلوات، بقائمة من الأدعية حال الفتن والكرب
وخوف الأعداء نحفظها ونحفظها أبناءنا ومن وراءنا..

وقد ذكر المؤلف عدة نماذج من التاريخ ومنها أن قتيبة بن مسلم سأل عن محمد بن واسع يوم قتال
الترك ف قيل له : هو ذاك في الميمنة جامع على قوسه يصبص بأصبغه نحو السماء، فقال قتيبة : تلك
الأصبع أحب إلي من مائة ألف سيف شهير وشاب طير..

ثم يختم المؤلف كتابه متفائلاً بكلمات جميلة، نذكر منها :وبعد، فهذه أزمة، وهذه مواقف جاءت
إليك، والعدو يجوس في الديار، وبغداد يدب عليها التتار، التتار الجدد، أزمة كما تدعوك لأن تهتم
وتجدد، فهي تدعوك لأن تتفاءل.تفاءل، التف إلى الله، وأبشر، اثبت وثبتن ازرع الإيمان ووضح الدين،
إهتم وأشعل الهمة، رص الصف وفعل الأمة، وانشر الوعي وفرّ إلى الله

نماذج صبر الأنبياء والأولياء في الفتن:

حياة الرسل والأنبياء ليست سوى النماذج البشرية السامية لهذا السلوك الابتلائي الحر في التجارب
الابتلائية، والمثل الناجحة، فكل رسول وكل نبي يخوض في مختلف الأنواع من التجارب الإبتلائية

¹ الرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير، ج 23 ، ص 189.

الممتعة والمؤلمة، شأنه في ذلك شأن البشر أجمعين، علاوةً على أنه يتخصص في نوع معين من الإبتلاءات يصبح فيه النموذج والمثال العظيم. وفي هذا تطبيق وتوضيح لقول الرسول بأنهم أشد الناس بلاءً. فإذا كان إبراهيم الخليل أباً للمسلمين حيث قال الله تعالى فيه ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 78] وقد رزقه الله ابنه إسماعيل وإسحاق على الكبر، و من ثم فإن أشد ما ابتلاه الله به إنما كان في عاطفة الأبوة فصار بذلك مثلاً للآباء على طاعه الله في الأبناء ، باعتبار ¹. لديه، تلك التي وسعت أمة بأسرها أنهم من فتن الحياة الدنيا وإبتلاءاتها كما أخبر الله بذلك، وذلك حين أمره الله بذبح ابنه إسماعيل الذي رزقه به على الكبر: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: 102-107] كما يمكن اعتبار إسماعيل عليه السلام بطاعته لله ولأبيه مثلاً ونموذجاً رائعاً في الإسلام لله وفي طاعة وبر الوالدين . أما يوسف عليه السلام: فقد تميز بالإبتلاء بالجمال الأخاذ الذي عَرَضَهُ لفتنة الشهوة من امرأة العزيز: ﴿وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۚ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 23-24] ومهما قيل في معنى قوله تعالى ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ فإن السلوك الإختياري الذي كان من يوسف والمتمثل في قوله لها حين دعته إلى نفسها ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ هو السلوك النموذجي الناجح في مثل هذه المواقف الجنسية التي تعترض كافة البشر في حياتهم وبخاصة الشبان والشابات . كما يمكن اعتبار صبر بني إسرائيل وعلى رأسهم موسى عليه السلام حيال ظلم فرعون لهم نموذجاً للسلوك الناجح حيال إضطهاد أصحاب السلطان الجائرين للمؤمنين المستضعفين: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

¹ النسفي ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ج. 2 ص. 880

[البقرة: 49] أما داوود عليه السلام فقد أخبرنا القرآن الكريم بالفتنة التي ابتلى بها داود ليعلمه أصول الحكم بين الناس قبل ان يوليه خلافة الأرض فقال مخاطباً رسوله محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۖ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۖ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ۖ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ ۖ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۖ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۖ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۖ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۖ فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ۖ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۖ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ۖ﴾. [ص: 17 - 26]¹. والشاهد في هذه الآيات أن الخصم الذين تسوروا المحراب، مرسلون من الله لإختبار داوود في معرفة أصول الحكم وقواعد القضاء بين الناس، حيث تسرع وأصدر الحكم قبل سماع أقوال الطرف الثاني في القضية، ولكنه سرعان ما أدرك ذلك فخر راعياً لله وأناب فغفرله ربه وجعله خليفة في الأرض. والسلوك الاختياري المطلوب ممن يتليه الله بالخلافة والملك، هو الحكم بين الناس بشرع الله، والشكر له، ومن ثم قال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَاثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۖ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ۖ﴾ [السبا: 38] أما سليمان عليه السلام: وكان سليمان عليه السلام أشد إبتلاء بالملك من أبيه فلم يكن مفهوم الملك في الدنيا سوى أنه فتنة واختبار من الله له. فهو مجرد سؤال عملي وتجربة ابتلائية اجتازها سليمان ونجح فيها بالشكر لله، وليكن مثلاً للملك الناجح في ابتلائه وشاهداً يوم القيامة على أمثاله من الملوك والأغنياء. فلقد طلب سليمان من ربه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده لا حياً في الملك فقد كان نبياً ملكاً حيث ورث أباه داوود، ولكنه طلب أن يعطيه الله هذا الملك للإبتلاء، حيث فتنته الخيل والتمتع بها فنسى ذكر ربه، فعز عليه ذلك وهو نبي، فتاب إلى الله وطلب منه أن يدخله تجربة ابتلائية أقسى وأشد مما هو

¹ السكندري، أحمد بن عطاء الله، التنوير في إسقاط التدبير، د. ت. (القاهرة: دار جوامع الكلم)، ص: 37.

فيه ومن ثم سأله الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده، تكفيراً لذنبه الذي ارتكبه بفشله في الابتلاء اليسير وتطهيراً وارتفاعاً في الدرجات عند الله، وذلك برجائه أن ينجح في هذا الابتلاء الكبير: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ۖ نِعَمَ الْعَبْدِ ۚ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝﴾ * إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ ۚ فُطِفَقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ * وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ * وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿﴾ [ص: 30-40] ¹

فلما طلب سليمان من ملئه أن يحضروا له عرشاً: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾. قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿﴾ [النمل: 39-40] وهكذا فهم سليمان ملكيته وسيطرته على الجن والإنس والطير وتسخير قدراتهم له بأمر الله، فهم ذلك كله على أنه بلاء من الله له، وأن السلوك الاختياري المطلوب منه حياله هو الرجوع بالفضل في ذلك إلى الله والشكر له. أما أيوب عليه السلام: قال تعالى في شأنه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: 41] وقد اجتمع على سيدنا أيوب ألم الجلد وعذابه الجسدي وهواجس الشيطان في خواطره النفسية لذلك قال: بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ولما اجتمع المرض ووسوسة الشيطان كيف يفعل الله بك هذا فأنت رسول وكيف يتركك دون أن يشفيك أما أيوب فهو مثال البشرية في الصبر، والشاهد على الناس يوم القيامة والحجة الدامغة على الفاشلين في ابتلاءاتهم المؤلمة، ذلك أنه قد تميز بالابتلاء بالضر والألم: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. اِرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۚ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ۚ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِعَمَ الْعَبْدِ ۚ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿﴾ [ص: 41-44] فقدم لنا الصبر باعتباره السلوك الاختياري الناجح حيال هذا

¹ ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، ط1، (بيروت: المكتب الإسلامي للطباعة، 1384هـ)، ج1، ص: 450.

النوع من الابتلاء فصار إماماً للصّابرين من البشر والأنبياء حيث قال الله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ۖ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرُوا لِلْعَابِدِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: 83 - 86] أما خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم فقد أنزل الله تعالى فيه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89] وقد تعرض عليه الصلاة والسلام لجميع أنواع الابتلاءات التي يمكن أن يتعرض لها إنسان في هذه الحياة والتي تعرض لها الرسل جميعاً ومن هذه الابتلاءات - صبره صلى الله عليه وسلم على الاضطهاد والتعذيب والإيذاء والتجويع والسخرية والردود القبيحة عليه والإهانات المتوالية صبراً في مواطن¹ - وكل ما أصيب به هو، أصيب به أتباعه والأذى الذي لحق به لحق بأقاربه القتال ولعل أبرز مواقف الصابرة في الحرب موقفه يوم أحد ويوم الخندق . - وابتلي النبي صلى الله عليه وسلم بمصيبة الموت في أولاده وأقاربه وأصحابه فصبر فضلاً عن أنه ولد يتيماً وتوفيت والدته وهو في السادسة من عمره وابتلي النبي صلى الله عليه وسلم بالمرض والجوع والفقر فصب. كما ابتلي النبي صلى الله عليه وسلم بالقوة والجاه والسلطان والمتعة والغنى والحكم وسائر مُتَع الحياة وقد التزم حيال كل ذلك بالسلوك الخُلقي القويم كنموذجٍ يحتذى به في كل موقفٍ من مواقف الابتلاء.

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 11 ، ص 566.

خاتمة البحث

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلاماً على عباده الذين اصطفى.

بعد نهاية هذا البحث المتواضع نسجل أهم النتائج التي وصلت إليها من خلاله وهي كالآتي :

- أن الفتنة في اللغة تأتي على معانٍ متعددة، فهي بمعنى الاختبار والابتلاء، والإعجاب بالشيء والميل إليه، وهي بمعنى الضلال والإثم والإزالة والصرف والعذاب والحرق بالنار والبلبله والاضطرابات والسحر.

- ورد لفظ الفتنة في القرآن الكريم على عدة معانٍ وهي: أولاً: الابتلاء والاختبار: ثانياً: وتأتي الفتنة بمعنى الشرك بالله ، و وتأتي بمعنى الزيف والضلال، وتأتي الفتنة بمعنى العذاب ، وتأتي الفتنة بمعنى الصدد عن الإيمان: وتأتي الفتنة بمعنى الجواب والمعدرة: تأتي الفتنة بمعنى العبرة:

- إن المتأمل في معاني الفتنة في القرآن الكريم يلاحظ أن الفتنة أعمُّ وأشمل من الابتلاء فالفتنة قد وردت في القرآن الكريم بمعنى الابتلاء والاختبار، والشرك، والزيف والضلال، والعذاب، والقتل والهلاك، والصد عن الإيمان، والإثم والنفاق والجواب والمعدرة، والجنون، والاختلاف وعدم اجتماع الكلمة، والعبرة والالتهاء بالشيء.

- يتحدث القرآن الكريم عن الفتن بأنواعها ونماذجها في أماكن كثيرة، ومواقع متعددة، ويلاحظ أن غالبية الآيات القرآنية التي تتحدث عن هذه الأنواع والنماذج في نطاق المفهوم الشمولي للفتنة، ودون ذكر مصطلح الفتنة أو شيء من مشتقاته

- أنواع الفتن في القرآن : فتنة المال والولد، فتنة النساء، فتنة الفقر، فتنة الصبر على المصائب الدنيوية،

- نظراً لخطورة الفتنة على الفرد والمجتمع، فقد حذر القرآن منها أيما تحذير، وبيّن أسبابها بياناً شافياً حتى يأخذ المسلمون حذرهم، فقد بيّن الله سبحانه أن أهم أسباب الفتنة هو اتباع الشيطان مبيناً العداوة القديمة بين الشيطان وبني آدم منذ ظهور الخليقة

فسبحان من وسعت رحمته كل شيء. وصلى الله على خاتم عباده الذين اصطفى سيدنا محمد الرسول المصطفى وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- ابن حبان، أبو عبد الله محمد الأندلسي ، صحيح ابن حبان ، دار التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة 1978 م .
- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م.
- ابن كثير، الإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار التراث العربي، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1988م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون ، دار الفكر ، بيروت 1979 م .
- ابن قيم الجوزية . مناهج السالكين، دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الثانية ، 1988م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الأفرقي لسان العرب، دار صادر ، بيروت ، 1388هـ-1968م
- أحمد ، الإمام أحمد بن حنبل ، مسند أحمد، بيت الأفكار الدولية، الأردن، الطبعة الأولى ، 2005م.
- الأصفهاني، الراغب ، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل ، المفردات لغريب القرآن ، دار الجليل ، بيروت ، الطبعة الأولى، 1999م.
- الألوسي، شهاب الدين السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1985م.
- الأندلسي، الإمام أبو حيان، البحر المحيط، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ، 1991م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1976م
- البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، د.ط، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت.
- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الرشيد، بيروت ، د.ط. 2001 م .

- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الثانية 1405هـ ،

- البيهقي، شعب الإيمان، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1990م .

- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، سنن الترمذي، دار الفكر، بيروت ، 1986م.

- الجرجاني ، عبد القاهر ، أسرار البلاغة ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1987م .

- الجرجاني ، الشريف علي بن محمد ، كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1996م

- الرازي، الإمام الحافظ عبد الرحمن بن محمد بن إدريس ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، 1999م.

- الرازي، الإمام فخر الدين، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار الفكر العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1405هـ.

- الرازي ، الإمام أبي بكر ، مختار الصحاح ، دار نهضة مصر . القاهرة 1967م .

- رضا، السيد محمد شيد، تفسير القرآن الحكيم، الشهير بالمنار، دار المنار ، القاهرة ، الطبعة الثانية، 1953م.

- الزرقاني، محمد عبد العظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن، الطبعة الثالثة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. القاهرة ، 1976م .

- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1957م.

- الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المكتبة التجارية الكبرى، مصر ، الطبعة الأولى ، 1935م.

- السجستاني، أبو داود سليمان بن شعث، سنن أبي داود، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1978

- السعدي، عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، بيروت ، الطبعة

- السمرقندي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، سنن الدارمي، دار الريان للتراث، 1976م.

- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ،الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية،بيروت،لبنان،الطبعة الثانية، 1972م .
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير(الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)، دار الفكر العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1967م .
- الطبري، الإمام محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1987م .
- العسقلاني ، ابن حجر، فتح الباري ، دار الفكر العربي، بيروت ، 1985م.
- علي بن عمر الدار قطني، سنن الدار قطني، دار المحاسن، القاهرة ، الطبعة الأولى، 1966م ..
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1987م .
- القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، دار الحديث، القاهرة ، 1978م .
- قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق القاهرة بيروت، الطبعة الثالثة عشر، 1986م.
- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب،القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان،الطبعة الثانية ، 1986م .
- مسلم ، أبو الحسين بن الحجاج ، الجامع الصحيح ، مطبعة البولاق ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1956م.
- النسفي ، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل " دار الكلم الطيب، بيروت الأولى، 1419 هـ - 1998 م .
- النسائي،أحمد بن شعيب،سنن النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1987م

المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
04	كلمة الشكر والتقدير
05	المقدمة
06	أسباب اختيار الموضوع
08	خطة البحث وتقسيماته
09	الفصل الأول : مفهوم الفتنة وعلاقتها بين الإبتلاء وما يتعلق بها
09	المبحث الأول : تعريف الفتنة لغةً واصطلاحاً والعلاقة بينهما
12	المبحث الثاني : المصطلح اللفظي للفتنة في القرآن الكريم
22	المبحث الثالث : العلاقة بين الفتنة والابتلاء
25	الفصل الثاني : أنواع الفتن ونماذجها في القرآن الكريم
26	المبحث الأول : فتنة الحياة الدنيا
34	المبحث الثاني : فتنة المال والولد
40	المبحث الثالث : فتنة النساء
44	المبحث الرابع : فتنة الفقر
53	المبحث الخامس : فتنة الصبر على المصائب الدنيوية
59	الفصل الثالث : أسباب الفتنة كما يصورها القرآن الكريم
60	المبحث الأول : إتباع الشيطان
64	المبحث الثاني : المعاصي
69	المبحث الثالث : مولاة الكافرين
74	المبحث الرابع : اتباع المتشابه
76	المبحث الخامس : ميادين الفتنة كما يصورها القرآن الكريم
90	الخاتمة
91	قائمة المصادر والمراجع
94	المحتويات